خمس رحلات جزائرية إلى باريز

جمع و تقديم : د.علي تابليت



منشورات خمسينية جامعة الجزائر

1962 - 2012

خمس رحلات جزائرية إلى باريز

1852م - 1901م

جمع و تقديم : د.علي تابليت

*سليمان بن صيام
*محمد السعيد بن علي الشريف
*أحمد ولد قاضي
*محمد شعبان المدعو مصطفى
*محمد بن الحسن بن الشيخ الفقّون

منشورات خمسينية جامعة الجزائر

2012 - 1962

العنوان : ***س رحلات جزائرية إ باريز***

ع وتقد : ***د. على تابليت***

الإيداع القانو : 2013-2771

ردمك : 978-9931-348-68-9

تصميم وإ از منشورات ثالة ـ الأبيار، ا زائر

هاتف: 021. 92. 42. 11/ 92.36.58

فاكس : 021 92 42 11

E.mail : thalaeditions13@yahoo.fr

منشورات جامعة الجزائر الصادرة بمناسبة
ذكراها الخمسين :

1- ***الطّب العر   ا زائر*** – مد بن العر الصغ .

2- ***كتاب الأجرومية   النحو (Grammatica Arabica)***
أبو عبد ا   مد بن مد بن داود الصنهاجي الشه بأجروم.

3- ***ا رصاد   مسائل الاقتصاد*** – عبد القادر ا اوي.

4- ***من أعمال مد بن مصطفى بن ا وجة*** (1865م/1915م).– مد بن مصطفى بن ا وجة.

5- ***معاهدات ا زائر مع الدول الأوروبية والولايات ا تحدة الأمريكية من القرن 17 إ القرن 19م.*** – د. علي تابليت.

6- ***إرشاد ا تعلّم*** – عبد القادر ا اوي.

7- ***فة الأخيار فيما يتعلق بالكسب والإختيار.*** - عبد القادر ا اوي.

8- ***شرح منظومة سيدي مد الإمام ا ـز   آداب ا وردين.*** - عبد القادر ا اوي.

9- ***جامعة ا زائر الذكرى ا مس*** (جزئ).

10- ***Mémoire Culturelle algérienne.***
(Articles parus dans des périodiques -1907-1924). – Ismaïl Hamet

11- ***Le Jugement étranger devant le juge de l'exequatur :***
De la révision au contrôle. – Issad Mohand.

12- ***Contribution à l'Etude du Paludisme dans ses rapports avec le traumatisme***.
– Taïeb Ould Morsly.

13- ***Ibrahim Ibn Sahl : Poète musulman d'Espagne***. Soualah Mohamed

14- ***Quelques mots sur les rétrécissements de l'œsophage…***
Mohamed ben Si El-Hadj Benamar Nekkach.

15- ***Contribution à l'Etude clinique et thérapeuthique des syndrômes graves de l'été chez le nourrisson à Alger***. – Aldjia Nouredinne.

16- ***Contribution à l'étude du traitement de la maladie de Bouillaud par l'ACTH et la Cortisone***. – Naffissa Hamoud.

17- ***Sur les équations linéaires dans un espace vectoriel***.
Audin Maurice.

18- ***Mots turks et persans conservés dans le parler Algérien***.
Mohamed Ben Cheneb.

تقديم

اعترافا وتقديرا بما قدمته الأجيال السابقة من بحوث في شتى التخصصات استوجب علينا التعريف بهم وببحوثهم في الذكرى الخمسين لاستعادة السيادة الوطنية، وبمرور 50 سنة على جامعة الجزائر التي بادرت بنشر وإعادة طبع مجموعة من الأطروحات التي لم تنشر وكذا عدد من الكتب لكتاب جزائريين كان لهم دور في النهضة الثقافية الجزائرية، إضافة إلى الذين شاركوا الشعب الجزائري في نضاله ضد الاستعمار الفرنسي وماتوا، وعُذّبوا، أو هُجّروا أو أُسقطت عنهم جنسيتهم...

وبالطبع فإن مثل هذا العمل يحتاج إلى إرادة حضارية لطبع هذه الأعمال، فكانت إرادة جامعة الجزائر استجابة رئيسها الأستاذ الدكتور طاهر حجار، فله كل الشكر والتقدير على دعم هذا المشروع الحضاري لجامعة الجزائر.

وقد احتاج هذا العمل نفسًا وجهدا طويلين لانجاز ما تقدم ذكره، فكان محافظ مكتبة جامعة الجزائر الأستاذ عبدي عبد الله، خير مرشد وخبير في جمع وإعداد هذه الكتب التي يجدها القارئ في آخر كل إصدار.

علي تابليت
أستاذ التعليم العالي
المشرف على هذه المنشورات
الجزائر، في 28 ديسمبر 2012

مقدمة

لدينا خمس رحلات جزائرية إلى باريس، ولكنها ليست برحلات معتبرة على غرار الرحلات القديمة، غير أنها تقدم لنا معلومات ذات قيمة في بابها وبمستوى أصحابها، وهي صغيرة الحجم، واتجاهها واحد، أي في اتجاه فرنسا، وطبعت بطريقة أو بأخرى لأن الهدف منها هو التعريف بما شاهد الزائر وبث الدعاية الموالية للفرنسيين ومدنيتهم، وترجمت إلى الفرنسية حيث يعرّف بها الكتاب الفرنسيون بعلاقاتها باهتمامات بلادهم، وكذا بمقدمة جريدة "المبشر" الصادرة في 30 أفريل 1852، عدد 112.

وللإشارة هنا أنّنا لا ندرس ولا نقيّم هذه الرحلات وإنّما أردنا إعادة طبعها والتعريف بها وبأصحابها دون النظر إلى ولائهم للإدارة الاستعمارية.

مناسبة الرحلات[1]

لما كان مقصود السلطان لويس نابليون رئيس الدولة أعزه الله ونيته السعيدة استجادة قوانين الدولة وإعادة ما سلف واندثر من العوايد الحسنة يأمل في شأن عساكره واشتغل بما يزيد في مصلحتها وخيرها ثم عزم على تبديل راياتها واتخاذ البنود التي اختصت لها فيما مضى من الزمان في دولة عمه السلطان المعظم مالك رقاب الملوك والأمم سعادة نابليون بونابارط الأول حيث كان السعد والإقبال متعلقين بتلك العلامات الشريفة التي خفقت بجناح النصر على البلاد النصرانية وافاقها أجمع وبحسب مراده السعيد ورأيه السديد تجتمع في أول شهر ماي شراذم العسكر من كل طائفة بمدينة باريس لتنال الرايات من يده وفقه الله وأنها على الكيفية القديمة مع صورة نسر من ذهب أعلاها ويكون ذلك بحضرة أعيان الدولة وطبقات الناس في دنية وافتخار حتى قيل أن ذلك المحفل لم يشاهد مثله منذ زمان طويل وقد توجه إلى ذلك النزهة جم غفير من الخاص والعام أكثرهم فرانساويون وغيرهم من قطان مداين الدول المجاورة لهم وكذلك أهل الأقاليم البعيدة حتى يحضر لمشاهدة

1. المبشر 30 أفريل 1852، عدد 112.

غرايب اليوم المذكور أناس من أطراف الدنيا ليعاينوا هذا التأويل العظيم بالنظر وينال كل واحد حظه من الفرح والسرور ولما ظهر للسلطان أسعده الله المصلحة في تبديل البنود لعسكره وإعادتها حسب النمط القديم المشار إليه أراد إحضار بعض أعيان ولات العرب من الأقاليم الجزائرية حيث أنهم محسوبين تحت رعاية الدولة وجناحها ولا فرق بينهم وبين الفرنساوية فانتخبت إذ ذاك كل عمالة بعض الأعيان من أولاد الخيم الكبرى المشتهرين بالثروة واليسار وكان الكثير طلب من سعادة والي الجزائر الإذن الجزائر الإذن في ذلك فلم يأذن له غير من اختاره وعينه للذهاب كما ذكر جميع المصاريف اللازمة في سفرهم ذهابا وإيابا من البايلك عدى ما يتبرعون به على أنفسهم هذا دليل حسن نية الدولة ومحبتها في جميع من انتمى إليها ودخل في حزبها من كل جنس والمرجو منهم الاعتراف بسياسة الدولة ورأفتها وحنانتها على جميع الرعية ثم إن بعض ولات العرب كانوا سافروا إلى فرانسة سابقا بقصد الزيارة والتنزه فقط خلاف هذه الموجبة التي لزم من حصل له الإذن في المسير بالقيام مقام غيره وليكون من حضر هناك بمنزلة غفر الوكلاء عن أبناء جنسه وأهل رعيته وأما جملة من سافر إلى فرنسة منهم السيد الطاهر بن محي الدين باش آغة بني سليمان وبوعلام بن الشريفة باش آغة جندل وبلقاسم بن فاسي باش آغة ساباروا ومصطفى ولد علي بومدين ولد علي بومدين آغة صبيح وسي سليمان بن صيام حاكم مليانة وسي علي بن باحمد خليفة قسنطينة وابنه محمد بن العربي وسي محمد بن المختار آغة الزمالة ومحمد ولد مصطفى بن اسماعيل آغة الدوائر واسماعيل ولد المزاري آغة اليعقوبية وسي محمد بن الأخضر بن أحمد المقراني ابن خليفة مجانة وبن حتَّى ولد بوضياف قايدا أولاد عامر الظهرين وسي اسماعيل

ولد مسلي علي قايد أولاد عبد النور وسي مكوزة ولد بوغنان بن عاشور قايد تلاغمة وسي مختار بن ذكرى قايد ولاد دراج الشراقة وكان أهل عمالة وهران من مرسي بلادهم وأهل عمالة قسنطينة من مرسى عنابة وأهل الجزائر من مرسيها ونخبركم مستقبلا إن شاء الله بجميع ما يحدث في هذه الوجهة مفصلاً"[1].

ومن الذين حضروا احتفالات تسليم الأعلام للجيش في باريس سليمان بن صيام (مليانة)، ومحمد السعيد بن علي الشريف (آقبو)، وبلقاسم أوقاسي (باشاغاسباو) وبوعلام بن شريفة (باشاغا جندل) وعلي بن باحمد (خليفة قسنطينة)، ومحمد بن الأخضر المقراني (ابن خليفة مجانة).

كانت السلطات الفرنسية في الجزائر تختار عينات في كل سنة لحضور المعرض الدولي بباريس، ومن الذين حضروا المعرض سنة 1855 اثنان من أعيان إقليم وهران، وهما القاضي محمد بلقايد قاضي وهران ومن المعارضين لوهران، والطاهر بن المحفوظي، وبلقايد من أعيان الدوائر والزمالة الذين خدموا الفرنسيين منذ 1835 ضد الأمير عبد القادر.

وفي سنة 1896 حضرت قوة عسكرية جزائرية على رأسها كوكبة من الأجواد، بحضور حفل استقبال الإسكندر الثالث قيصر روسيا ومروا أمام القصر فكان الرؤساء الجزائريون "يجمّلون المحفل القيصري بألوان برانيسهم الخفاقة الأجنحة وأشعة أسلحتهم المحلاة" حسب وصف جريدة المبشر. وكان على كل رئيس منهم أن يأتي بجواده الأجود وبأحسن جهازه وأجمل خديم بلباس كله أبيض". وكان على الرؤساء (الأجواد) أن يلبسوا برانيسهم الرّسمية ذات اللون الأحمر وهذا كله على نفقة الدولة الفرنسية.

---

1. *المبشر*، جوان 1852.

والذين حضروا هذه المناسبة هم ستة من العائلات المنقرضة.

1. الأخضر بن محمد بن فرحات من أولاد عباد، حاكم الأرباع (بلقب باشاغا).
2. حمزة بن بوبكر من أولاد سيدي الشيخ (بلقب آغا) جبل عمور، وهو متزوج بفرنسية.
3. محمد بن قـانة، بلقب آغا الزيبان.
4. ولد قاضي علي ولد سي أحمد، بلقب الآغا شرفيا فقط.
5. علي باي بن ميهوب بن شنوف، بلقب قايد بني بوسليمان وأحمر خدّو، وهو من عائلة بوعكاز من الجنوب.
6. بوزيد محمد الصالح، ولم يذكر لقبه، سوى أنه المسلم الذي عيِّن بدوار الزرق مسكيانة[1].

---

1. أبو القاسم سعد الله، *الحركة الوطنية الجزائرية*، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005، ج2، ص 166-167.

من هو سليمان بن صيام ؟[1]

سليمان بن صيام ولاه الفرنسيون آغا مليانة، منذ نهاية المقاومة تحت قيادة الأمير عبد القادر، وابن صيام من الأغنياء والمثقفين ومن الأجواد أيضا، لعبت أسرته أدوارا في السياسة العامة، وكان أحمد بن صيام رئيسا للمكتب الخيري ثم الجمعية الخيرية بالعاصمة. وحين وقعت ثورة أولاد سيدي الشيخ (1864) أرسل سليمان بن صيام وغيره من الرؤساء العرب بيانا إلى نابليون الثالث يستنكرونها ويعلنون الولاء لفرنسا ولم يكتب سليمان بن صيام أيضا دعوة الحاج محمد المقراني إلى الثورة سنة 1871[2].

رغم أن هناك ما يدل على حصول اتفاق سابق بينهما على الثورة واقتسام مناطق النفوذ وقد بقي في الإدارة حتى تاريخ وفاته سنة 1896. أما رحلته فقد استغرقت 35 يومًا، 25 أفريل إلى 25 ماي 1852. وكان هو ضمن مجموعة من الأعيان من العمالات الثلاث، ولم يسافروا من تلقاء أنفسهم،

---

1. أنظر :

Marthe et Edmond Gouvion, *Kitab Aâyane el-Marhariba*, Prévence d'Alger, 1920, pp. 11-13.

2. *المبشر*، 21 ديسمبر 1878.

وإنما كانوا مأمورين، فقد أمرهم الوالي العام، الماريشال راندو، بالتوجه إلى العاصمة الفرنسية لحضور توزيع الألوية على الجنود وكبار الجيش الفرنسي تحت إشراف نابليون الثالث، وبعد عودته كتب رحلته هذه وقد بدأها بحمد الله وشكر "السلطان" نابليون، ثم قال : "لمّا سبق في سابق علمه تعالى أنّي أمشي...."[1].

وهنا أشير أن الهدف من تقديم هذه الرحلة ليس دراستها والتعليق عليها بل لإعادة طبعها وتقديمها للقراء والمهتمين بالرحلات.

دفن بن صيام في مقبرة سيدي أمحد، بلكور، وفي جنازة رسمية.

حصل على العديد من الأوسمة والميداليات.

د. علي تابليت
جامعة الجزائر في 28 ديسمبر 2012

1. أبو القاسم سعد الله، *تاريخ الجزائر الثقافي*، المجلد الرابع، ج 7، ص 474، 455، 2005.

كتاب رحلة سليمان بن صيام إلى بلاد فرانسه [1]

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

نحمد الله حمد معترف بحقّه، ونشكره على فضله ورفقه الذي جعل الأرض ذلولاً نمشي في مناكبها ونأكل من رزقه، وسخّر لنا الفلك لنجري في البحر بأمره ووفقه، ونستوهب للمقام السلطانيّ النابليونيّ أعزّه الله فخرًا يتلى بالغرب المعمور وشرقًا، وبعد فيقول العبد الفقير إلى ربّه السّلام سليمان بن صيام لما سبق في سابق علمه تعالى أنّي أمشي لرؤيا أرض الشمال ذات المحاسن العديدة والكمال أمرني من يجب على امتثال أمره وهو والي قطر دايرة الجزائر وقطبه صاحب الرأي السّديد، والجود الذي ليس فوقه من مزيد البطل الهُمام، والأسد الضرغام سعادة السيد القبر نور راندون لا زال من ربّه بعين العناية ملحوظًا ومن شرّ حسّاده محميًّا محفوظًا فامتثلت أمره السعيد وكان ذلك اليوم عندي كالموسم الجديد، وركبت من مليانة دار السّكنى إلى الجزائر الغراء دخلتها حماها الله يوم 23 من أبريل سنة اثنين وخمسين وثمانية عشر ماية، وتاريخنا في هذا الكتاب كلّه التاريخ المسيحي ووجدت بها جماعة

1. طبع ببلد الجزائر في مطبعة الدولة.

من رؤساء العرب مأمورين مثلي بالسّفر لهاتيك البقاع والمنازل، كما أمر أسعده الله رؤساء الايالتين أعنى وهران وقسنطينة بالسّفر مثلنا لينخرط الجميع في سلك أولئك الأفاضل يوم اجتماع المحافل لتفريق البنود على كبراء الجنود، وكان سفرنا من الجزائر مدينة سيط يوم 25 من أبريل بعد زيارتنا سعادة والي الجزائر المذكور وإنعامه الوافي الموفور، فمن إنعامه وإحسانه وجوده وامتنانه أن وجّه معنا من يتفقد أحوالنا صاحب السياسة التي لا تحصى، والمواسات التي لا تستقصى وهو سعادة الكولونيل دريو وركبنا البحر قاصدين مدينة سيط فلمّا رأيت ذلك السيد السايل تذكرت قول القايل :

انظر إلى مركب يسبيك منظره   يسابق الرّيح سرعة بإسراء

كأنّه طائر قد مدّ أجنحة   أتى من الجوّ منقضًّا على الماء

ودخلنا مدينة سيط عشية السابع والعشرين من أبريل وبتنا بها ليلتنا ولم يمكنا أن نرى ما احتوت عليه من المحاسن لسفرنا منها غداة دخولنا قاصدين مدينة مونبيلي في كروسة الدخان فوق طريق حديد وصفته على وجه الاختصار، هو أنّهم جعلوا شرايط من حديد من أوّل الطّريق إلى آخرها في غاية التمكّن بمسامر من حديد مع استوائها تسير الكرّوسة فوق تلك الشّرايط وذلك اختراع عظيم بيانه أنّهم جعلوا هذه الشرايط في الأرض يمينًا وشمالاً مربعة مرتفعة مقوسة في أسفلها الذي تحت الأرض، وفي الربع الأعلى ساقية تجري فيها رودة الكروسة ولا تخرج عنها لأجل حسن المطابقة بين أسفل الساقية ودور الرودة وذلك من أغرب ما يكون مع استواء الطريق ووزنها بموازين الهندسة بحيث لا يعلوا موضع على الآخر بشيء ما، ومهما تعرّض لهم جبل

شاهق في الطريق يمنعهم المرور دخلوا تحته بالثقب فيكون حيطان تلك الثقبة من حجر منحوت وسقفه كذلك، وفي رجوعنا من مدينة باريس مررنا تحت جبل كذلك في كروسة الدخان ستة دقائق مع خفتها وسرعة سيرها لأنها كانت تمر فيها كالبرق الخاطف، وأمّا الراكب فوق الدابة لو دخل هذه الثقبة يسير تحت الجبل مدة ساعة ونصف لأن هذا سير الكروسة بالنسبة للراكب أو للراجل فإن المسافة التي يقطعها الراكب في الكروسة في ساعة واحدة لا يقطعها فارس في أقل من يوم، والكروسة في الصورة لا تبعد عن غيرها، إلا أنها من حديد وفي داخلها آلات يقال كالة مراكب الدخان يوقدونها القائمون بها بحجر أسود من معدن مختص لبعض البلاد يسمونه فحم الأرض ثقيل جدا، ومنه يوقدون مراكب الدخان البحرية والنهرية، وتلك الكروسة تقود كراريس عديدة تنيف على الستين في كل واحدة نحو من ستة عشر نفرا بدون خيل ولا واسطة قايدة ما عدى الدخان هو المدير لتلك الرودات حتى تسير السير المفرط، وذلك من أعجب ما رأينا وليس الخبر كالمعاينة، ووصلنا إلى مدينة مونبيلي في 28 أبريل في يومنا، ولما دخلناها قصدنا واليها السيد الجنرال صانه الله، فلما مثلنا بين يديه رحب بنا مع إظهار الفرح بقدومنا، وعرفه بكل واحد منا السيد الكولونيل دريو وأمر قبطانه أن يذهب معنا إلى بستان عجيب فلما دخلنا إلى ذلك المنتزه وجدناه من أحسن ما يكون، مشتملا على أنهار وأزهار ومنازه ومقاعد ومياه متدفقة يسمّى بيروا ورأينا به ماء محمولا فوق أقواس في غاية العلو يتدفق في ذلك البستان أخبرنا القائم به أن ذلك الماء مجلوب من جبل بعيد عايناه وبينه وبين البلدة مسيرة ستة وثلاثين ساعة، ثم بعد التفرج خرجنا إلى المحل الذي أنزلونا فيه وبتنا ليلتنا وسافرنا من البلدة المذكورة في 29 يوما من أبريل إلى بلدة تسمى

أفينيون في كروسة الدخان فوق طريق الحديد دخلناها في يومنا ورأينا بها ما يستغرب من البناء المحكم العجيب فيها دار معدة لاجتماع البابصات وأهل العلم في الدين المسيحي، فيا لها من دار قد فاقت ما فيها من الترصيص بالصخور والصور حتى تحير فيها العقول، وسافرنا منها أول يوم من ماي قاصدين بلدة فلانص في مركب الدخان في النهر الذي هو كالبحر عرضه ينيف على ألف ذراع مرصفا من جهتيه، رأينا فوقه قناطر تمر من تحتها المراكب في غاية العلو والإتقان، مصنوعة من سلك الحديد والبناء العجيب، إلى أن وصلنا البلدة المذكورة في يومنا، ورأينا فيها بعض سراذم العساكر التي لا يأتي عليها العدو ولم نر غير ذلك لعدم الإقامة بها، وكان سفرنا منها في النهر في مركب الدخان، وذلك النهر على الصفة المتقدمة من العرض والرصايف والقناطر وتعديد السفن الدخانية وشواهق القلوع، ونحن نرى تلك العجائب إلى أن وصلنا إلى مدينة ليون في اليوم الثاني من مايو دخلناها فوجدناها من أعظم المدن وأجودها، وفي الحقيقة هي ثاني كرسي دولة فرنسا مشتملة على منارة ومقاعد وأشجار وأزهار ورنات أطيار تغنيك عن سماع الأوتار، في وسطها واد عليه قناطر من حديد لم تر العيون مثلها ولا سمعت الآذان بشبهها، قابلونا أهلها أحسن قبول وفرحوا بنا كلهم منهم من فرح بلسان المقال وآخرون بلسان الحال، ثم مشوا بنا إلى كنيسة وجدناها من أعظم الكنائس وأجودها مع الضخامة والتشييد في البناء الغريب والرفاهية، ورأينا بهذه المدينة دارا يسمونها دار التصاوير مليئة بالتصاوير المنحوتة من الرخام والمرمر الجيد، وتصاوير أخرى في حيطان تلك الدار بحسن الصناعة التي لا فرق بينها وبين الآدمي إلاّ بعدم الكلام حتى إنك إذا حققت النظر في الصورة التي في الحائط تراها تتبعك بنظرها، فيا لها من صنعة غريبة سألنا عن تلك التصاوير

فأخبرونا أنها صور أوائلهم ورأينا هذه الدار أيضا إنسانا ميتا موضوعا في صندوق من زجاج قد يبس جلده على عظمه مع بقاء شعر رأسه ولحيته وبقاء أسنانه على حالها، سألنا عنه فأخبرونا أنهم أتوا به من بلاد مصر، ووجدوه في مضجع الأولين ومنذ موته إلى اليوم ثلاثة آلاف سنة، ورأينا بهذه المدينة محكمة الشرع نقول هي دار في غاية ما يمكن من الكبر والعلو مع التشييد في البناء والرفاهية كسواري الرخام الجيدة، وبالاختصار لو كانت هذه الدار في موضع وحدها يظن ناظرها أنها قرية ولما سرحنا نظرنا في محاسنها وجدناها محتوية على منازه ومقاعد وتزليج وفرش وكراسي غالية الثمن، وأما أهل هذه البلدة مع كثرة عددهم لم تجد شخصا منهم غير مشتغل مع رفاهية عيشهم واعتنائهم بالصناعات المفيدة كنسج الحرير والذهب بالآلات اللطيفة، وأمر أهل ليون بهذه النفائس واضح مشهور، ثم خرجنا منها في اليوم الرابع من ماي قاصدين بلدة شلوا في مركب الدخان في النهر على الصفة المتقدمة، والحالة أن القلب متعلق بها، ولما وصلنا إلى بلدة شلوا ركبنا في كروسة الدخان فوق طريق الحديد قاصدين حضرة باريس، وفي مدة سفرنا رأيت بجانب الطريق نحوا من ستة خيوط من سلك الحديد أرق من الخنصر ممدودة فوق الأرض في ارتفاع نحو ذراعين وهي في بعض الجهات محمولة فوق أعمدة من خشب سألت عنها فأخبرت أن تلك الخيوط طرفها بباريس والطرف الآخر بمدينة ليون يبعثون بواسطتها الخبر من باريس إلى ليون ومن ليون إلى باريس في مدة طرفة عين بل يحادث الشخص في باريس جليسه بليون مع بعد المسافة بينهما والمحققة أنّها مائة وتسعة عشر فرسخا فرنساويا، ولم ندر كيف يصنعون لأنّنا لا رأينا لها مثل حركات السنيال الذي عندنا في بلاد الجزائر وهذا من أغرب

ما رأيت والأمر لله من قبل ومن بعد، وحاصل الأمر وغايته أننا منذ دخلنا هذه البلاد بأسرها لم نر بها موضعا خاليا من الغراسة والحراثة وكثرة الأشجار المثمرة والظل المديد والحسن الذي ليس فوقه من مزيد مع كثرة مدائنها وقراها وعمارتهم ونظافتهم حتى أننا لا تمر علينا الساعة الواحدة إلا وشهدنا فيها من المدن والقرى ما يكلّ اللسان والقلم عن تعديده، وبالجملة هي قرى مسلسلة متصلة بعضها ببعض خصوصا مع جد السير، حتى أن الإنسان لا يظن أنه في بلدة واحدة والمسافرون غالبا في ظل الأشجار المرصوصة بترتيب مطرد في سائر الطرق، ولما رأيت تلك الأشجار والأنهار وذلك الظل والأزهار تذكرت قول البحتري حين وصف دمشق الشام :

أما دمشق فقد أبدت محاسنها	وقد وافى لك مطريها بما وعدا
إذا أردت ملأت الطرف من بلدٍ	مستحسن وزمان يشبه البلدا
يمشي السحاب على جبالها فِرقا	ويصبح النبت في صحرائها بددا
فَلَستَ تُبصِرُ إلّا واكِفا خَضِلَا	أو يانِعًا خَضِرًا و طائِرًا غَردا
كَأَنَّها القَيظَ وَلّى بَعدَ وفدته	أو الرَبيعُ دَنا مِن بَعدِ ما بَعُدا

وأما أمر أهل فرانسة في الاعتناء بالغراسة والحراثة والنظافة والتشييد في البناء وتكثير التجارة والضايع فهو أدل دليل على صلاح رأيهم وامتثالهم لأمرائهم حتى اشتهر العدل في براريهم وبحارهم، وقد أخبرني بعض الأصدقاء وقالوا لو اتفق لبعض النسوة السفر في البرّ أو في النهر راكبة أو راجلة تقطع المسافة من شرق البلاد إلى غربها من غير معارض ولا لص وإن امتلأت حقائبها ذهبا وياقوتا ولا يخطر ببال

شخص تجريد الناس في الطريق بل يعم الأمن والأمان والعافية والخصب جميع النواحي، وفي يومنا دخلنا إلى مدينة باريس وهو اليوم الرابع من مايو فلما رأيتها وجدتها أحسن مما وصفوها الوصافون ولا يمكن لشخص أن يستوعب جميع محاسنها ولو أقام السنين، واجتمعنا مع إخواننا العرب المتوجهين من نواحي قسنطينة ووهران أنزلونا أهل الدولة بمحفل كبير جيد كبير في غاية الرفاهية يقال له أوتل دي برانس فجعلت أسرح نظري على شكل هذه المدينة العجيب ووضعها الغريب، وإمعان النظر في سكانها من سلاطن ونحوهم، وفي أنهارها وقناطرها وبساتينها وأشجارها ومياهها العذبة، وصحة هوائها والسؤال عن خزائن الكتب المنعوتة المختلفة ألسنتها وأجناسها، واعتناؤهم بالحروب وكثرة جيوشهم وامتثال الرعية للأوامر الصادرة من أمرائها، وعدل الدولة في جميع رعيتها وعلو الديار وتشييدها، وقصور سلاطينها، وكذلك ضرب السكة وغرابتها وجمعهم لجميع الوحوش والقيام بشؤونها وديار النزهات والمزح وغرائبها، أما شكلها فمستطيل هكذا يظهر، وأما ضخامتها فهي من أعمر مدائن الدنيا، والتحقيق أن سكانها مليون ومائتي ألف نفر، وهي من أعظم مدائن الإفرنج الآن، وهي كرسي بلاد الفرنسيس، وقاعدة ملك فرنسا، وأما أهل باريس فهم يختصون من بين الناس بذكاء العقل، ودقة الفهم، وغياص الذهن في الأمور عامة.

كانت محادثة الركبان تخبرنا   عن فضلهم وعلاهم أحسن الخبر

حتى التقينا فلا والله ما سمعت   أذني بنصف ما قد عاينت بالبصر

وليسوا بالمقلدين في الأمور أصلاً بل يطلبون دائما إدراك معرفة أصل الشيء والاستدلال عليه حتى أن عامتهم أيضا يعرفون القراءة

والكتابة ويدخلون مع غيرهم في الأمور العميقة، كل إنسان على قدر حاله فليست العوام بهذه البلاد كعامة غيرها من البلدان، ولما كانت سائر العلوم والفنون والصنائع الوضيعة مدونة بالكتب يحتاج الصنّاع بالضرورة إلى معرفة القراءة والكتابة لإتقان صنعتهم، وكل صاحب فن من الفنون يحب أن يبتدع شيئا لم يسبق إليه، أو يكمل ما اخترعه غيره ابتغاء الثناء في حياته وحسن الذكر بعد وفاته، وقد أشار ابن دريد في مقصورته إلى هذا المعنى حيث قال

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثا حسنا لمن وعى

ثم لما انتهى الكلام على أهل فرنسا مطلقا نذكر الآن بعض ما اتصف به سيدنا المعظم ملك دولة فرنسا المنصورة على سبيل الاختصار نقول هو سلطان كبير فرع سلطان بالعدل والشجاعة شهير، ذو قدر جليل خطير، شهرته أغنى عن الوصف، وفخره لا يحتاج إلى إيضاح ولا إلى كشف، فارس مضمار، وبطل وغى، كرار ذو فتكات معروفة، وعزمات موصوفة، وكل الملوك بذلك يشهدون، وهو المعظم الأنجد سيدنا لوي نابليون أطال الله مدته، وأدام سعادته

ورث الشجاعة من أبيه وعمه فكأنهم ما غاب منهم مالك

جمع السماحة والرجاحة والندا والبأس والرأي الأصيل مبارك

وإذا المعالي أصبحت مملوكة أعناقها بالحق فهو المالك

فجزى الله أهل فرنسا خيرا حيث أعطوا القوس باريها، وأسكنوا الدار بانيها، وأركبوا الجمل مجريها، وفوضوا أمر الدولة إلى العالم بحلها وعقدها وأما الوزراء وكبراء الدولة فهم قوم أخيار ذوو همم كبار، لاسيما سيدنا وزير الحرب المعظم سانطارنوا أدام الله بقاءه ذو بأس

في الحرب بطعن وضرب له في المعالي همم عوالي، ومقام معروف، وعزم موصوف مع حسن سياسة، وفضل رياسة وبذل مال، ولين مقال، وجاه عالي، وعز غالي

هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دعوا أجابوا وإن أعطوا أصابوا وأجزلـوا

فـلا يسـتطيع الفـاعلون فعـالهم وإن أحسنوا فيما أتـوه وأجملـوا

وأما أنهارها فنقول باختصار يشقها نهران احداهما وهو الأعظم والأشهر يقال له نهر السين والثاني نهر غوبلان، ونهر السين المذكور ماؤه من أحسن المياه مناسبة لصحة الأبدان باتفاق الحكماء، وفي نهر السين المذكور بداخل باريس ثلاثة جزائر وفيه تسافر السفن العظيمة الوسق، وبه الأرصفة الجيدة العظيمة على حفافيه وشطوط هذا النهر من داخل المدينة مرصفة بحيطان عالية عظيمة فوق الماء نحو قامتين يطل المار بجانبيها على النهر وهي محكمة البناء، وأما قناطر هذا النهر بباريس فهي ستة عشر قنطرة، فمنها قنطرة بستان النبات لها أربع مائة قدم من الطول، وعرضها سبعة وثلاثون قدما يقال قد بنيت في خمس سنين، وصرف فيها ثلاثون مليونا فرنك وتسمى أيضا هذه القنطرة قنطرة استرلتز باسم محل غلب فيه نابليون ملك منامسة وملك المسكو فيقال لهذه الواقعة واقعة استرلتز مواقعة تتويج نابليون فسميت القنطرة بهذا الموضع الذي وقع فيه الظفر لنابليون بملكين من الملوك المعتبرة تذكرة وإبقاء لذكره الجميل، وأما بساتين باريس وأشجارها ومحل الوحوش فإن الدولة أنعمت علينا بأن وجهونا إلى موضع يقال له جاردان دي بلانط وجدنا فيه من الوحوش كالفيل والأسد والنمر والكركدن والبرص والسبع ونحوها، ورأينا غير هذه الوحوش مما لا أسميها،

وبقرب هذا المحل بستان متسع جدا مسقفا بالبلور وجميع الأشجار التي لا تنتج في البلاد الباردة وجدناها مغروسة فيه كالنجل ونحوه، ولما دخلناه وجدناه حارا مثل الحمام فكشف الغيب أنهم يوقدون النار من تحته تحفظا بتلك الأشجار، مشينا داخله نحو خمسة عشر دقيقة وما استوعبنا جميعه وهو من أعجب ما رأينا، وأما مواضع اللعب والمزح فإن أهل الدولة وجهونا إلى موضع اللعب وهي دار في غاية الاتساع والإتقان فلما اجتمع الناس وشرعوا المزاحون في أمرهم وكنا نرى أن وسط المحل فارغ والناس يطلون عليه من فوقه، ومن العجايب التي رأينا هناك شجرة خارجة من المحل شيئا بشيء حتى استوت على ساقها ثم أبدت أوراقها وأزهارها إلى أن خرج من أزهارها نساء كن ملتفين بالأوراق فمزقن الأوراق وتكلمن مع بعض من حضر فكشف الغيب أن الشجرة ليست حقيقة وإنما هي صورة فقط، وتلك النساء يضحكن ويلعبن وهذا أيضا من أغرب ما رأينا والأمر لله من قبل ومن بعد، ووجهونا أيضا إلى موضع يسمى بيضرم شهدنا به من العجايب والغرايب فمنها أننا رأينا امرأة ومعها ستة من الخيل وبيد المرأة لجم الخيل وهم في غاية السبق والجري وهي واقفة فوق اثنين منهم وتارة فوق اثنين غير الأولين إلى أن تقف على جميعهم مع شدة جريهم واستواء بعضهم ببعض، وأغرب من هذا أننا رأينا كروسة يجرها فرسان يقودهما قرد لابس لباس بني آدم حاملا قردين في كروسته جالسين على هيئة مليحة ووقار كزي بني آدم، ومنها أننا رأينا ثلاثة نفر صعدوا إلى الجو حتى اختفوا علينا وذلك أن الثلاثة حملتهم قبة من خرقة غليظة ملوها بالدخان وربطوا من تحتها لوحة تشاكل صندوقا وجلسوا فيه والناس يرونهم إلى أن شرعوا في الصعود إلى الجو فتبعناهم بالنظر حتى اختفوا وبقينا نرى تلك القبة

التي حملتهم فسألنا بعض الأصدقاء عن مآل أمرهم فأخبر أنهم إذا أرادوا النزول إلى الأرض لهم ذلك، وهذا من أعجب ما رأينا وأباحوا لنا الدخول إلى دار صناعة الدراهم وجدنا بها أربعة عشر مطبعة في غاية ما يكون من قلة المشقة وخفة العمل وشدة الضرب حتى جميع ما يحتاجون إليه من خدمة الآدمي يخدمونه بالآلات إلا في وقت الميزان فقط أخبرني من أثق بخبره أن كل مطبعة تضرب في اليوم مائة ألف دورو فتأمل أيها الناظر وذلك من أغرب ما رأينا وليس الخبر كالمعاينة

فلو أبصروا ليلا أقروا بحسنها وقالوا بأني في ثنايها مقصر

ومن إنعام أهل الدولة أن أرسلونا إلى قصر يقال له فرساي وهو قصر السلاطين غير بعيد عن المدينة ركبنا كروسة الدخان ووصلناه على ثلث ساعة فلما دخلناه دخل معنا خلق كثير نساء ورجال لا يمكنهم الدخول في كل وقت وتعجبنا من ذلك التشييد الغريب من سواري الرخام والمرمر العزيز الموجود والتصاوير والتماثيل العجيبة مع ضخامته وصعوده في الجو وتعداد مقاعده ومنازهه مشرفة على بستان ذي أشجار وأنهار وأكمام وأزهار وأدخلونا موضع بيت السلطان وجدناه لا نظير له في جميع الأمصار والأوطان، وذلك أن الكراسي وسرير الرقاد وآلات البيت كل ذلك مصوغ من الذهب الخالص المتقن، مع ما يتبع ذلك من التمويه والتزلج والتصاوير والمرأة المشنة وبه عدة تماثيل منحوتة من الرخام الجيد لا فرق بينها وبين الآدمي إلا بعدم النطق سألنا عنها فأخبرونا أنها صور ملوك فرنسا، مشينا داخل القصر ثلاث ساعات وما رأينا ثمنه ولا عشره أخبرونا أن من يريد أن يستوعب جميعه ينبغي له أن يقيم أياما كثيرة، وشرعنا في الدخول إلى البستان الذي بجانبه ولا نتعرض لذكر بهجته واتساعه واستواء صفوف أشجاره والتفاف بعضها ببعض

لأن ذلك شيء لا يفي به القلم وإنما نذكر شياء آخر وذلك أن بالبستان عدة صهاريج في غاية ما يمكن من الكبر والإتقان جدا مستوية وبداخل كل صهريج خصة ينبع الماء منها صاعدا في الجو مقدار ثلاثين ذراعا وذلك من أغرب شيء يراه البصر، ولما شهدت تلك المياه وحسنها بدفع نعيمها مع تلك الأشجار المحدقة من كل جانب واستواء صفوفها وترداد ألحان أطيارها ولطيف نسيمها وحسن قصورها تمثلت بقول الشاعر في وصف دمشق.

أرض محل الأماني من أماكنها　　بحيث تجتمع الدنيا وتفترق

إذا أنشد الطير فى أغصانها وقفت　　على حدائقها الأسماع والحدق

واعلم أن ملوك فرنسا لو اتصفوا بالظلم والجور وعدم الرفق بالرعية لما قدروا على تحصيل بعض الغرض من عمارة البلدان وكثرة العساكر البرية والبحرية وتحصين الثغور وتعميرها بالعدد والعُدد وغير ذلك مما لا يمكن حصره وبرهان ذلك ما رأيناه من امتثال الرعية بالأوامر الصادرة من أرباب الدولة فهو أمر ظاهر بيّن لا يحتاج إلى إقامة دليل إذ لو لم يكونوا ممتثلين لما تم الأمر من محاسن فرنسة وعمارتها وكثرة مدائنها ومراسيها وسفنها وقراها وآلات حروبها وعساكرها التي لا تحصى ولا تعد، وقد شاهدنا ما شاهدنا من العمارات ونحوها والتواتر يفيد القطع على وجود جميع ما سمعنا وما رأينا ثم أن أهل الدولة من كثرة عدلهم واعتنائهم بالأمور جمعوا أنواع الكتب الموجودة على الأرض وجعلوا لها خزائن وحفظوها من كتب جميع الأجناس حتى أن كتب المسلمين المعتبرة التي قلّ نظيرها في بلاد المسلمين موجودة هناك وغيرها مما لا يحصى مع اختلاف فنونها وفي ذلك أيضًا من عدلهم مثل مع أن إنسانا غريبا

توطن بلادهم واحتاج إلى النظر في الكتب يمكن من ذلك نيل غرضه وقضاء وطره، كاعتنائهم بالفقراء والعميان والبكم بأن جعلوا لكل فرقة محلا يجمعونهم فيه يشتغلون بأمور يقدرون عليها والدولة قائمة بهم أتم قيام، وفي مدة إقامتنا ما رأينا إنسانا مدّ يده لأخذ الصدقة لغناء الفقراء عن السؤال لأنهم مصونون في الأماكن المعدة للفقراء ولا يمكن قضاء العجب من ذلك ولا وصفه على سبيل الاختصار، وثم أمور لا يسعها الوقت ولا يفي بها اللسان، ولنشرع الآن في ذكر ملاقاتنا بالوزراء وإنعامهم علينا ولذيذ خطابهم وإكرامهم وذكر دخولنا إلى حضرة السلطان سيدنا المنصور والملك المختار باتفاق الجمهور وركوبنا معه يوم المهرجان فنقول أن أول من لقينا من كبراء الدولة سعادة السيد الجنرال دوماص المشهور بالعدل والإنصاف قصدناه أسعده الله ومعنا السيد الكولونيل دوريوا المذكور فلما مثلنا بين يديه فرح بنا فرحا شديدا ورحب بنا ترحيبا أكيدا وتكلم مع كل أحد منا بما يناسبه فأجبناه بما يناسب قدره الرفيع وذهب بنا إلى حضرة سعادة الوزير الأعظم وزير الحرب الأفخم وهو السيد الجنرال سانطارنوا فلما مثلنا بين يديه رحب بنا وفرح بنا وسألنا عن أحوالنا فأجبناه أننا في الخير والعافية والخصب والهناء، ثم قال لنا أسعده الله أن هذا العرس عرس عظيم يجتمع فيه جميع الأجناس وكبراء العساكر ورؤساؤهم بعثنا لكم لتشاهدوا هذا المهرجان لظننا الجميل فيكم ومعرفتنا بكم سابقا وقد أكرمنا بلذيذ خطابه وسياسته صانه الله ورعاه وأخبرنا أنه يذهب بنا إلى حضرة سعادة سيدنا السلطان فتهيأنا لذلك وسار بنا هو والجنرال دوماص والسيد الكلونيل دوريوا إلى أن دخلنا الحضرة المصونة وجدناها ملانة بالوزراء وأهل المشورة وكبراء العسكر وسعادة السيد السلطان في وسطهم أمرونا بالتسليم عليه بما يناسب قدره الرفيع

وقد أظهر لنا الفرح والسرور بقدومنا لحضرته السعيدة وسأل عنا فعرفه سعادة الوزير الأعظم بكل واحد منا مكثنا في حضرته السعيدة هنية فسلمنا عليه وانصرفنا في غاية الفرح والسرور برؤيته المباركة، وفي اليوم العاشر من مايو وهو يوم العرس أمروا لنا بخيل ركبناها ووصلنا الحضرة السعيدة وجدنا ببابها جماعة من الجنرالات راكبين ينتظرون خروج سعادة السلطان من محله فوقفنا مع أولئك الجنرالات حتى برز في هيئة لم تر العين مثلها راكبا على فرس لا نظير لها، ومع سعادة السلطان المعظم سعادة وزير الحرب وكبراء الدولة فساروا قاصدين موضع المهرجان وسرنا من خلفهم ومنذ شرع في السير إلا والمدافع تضرب والخلق داع بالنصر لسعادة السلطان وطول العمر إلى أن انتهينا إلى محل المهرجان وجدنا به خلقا لا يحصى والعساكر المختلفة التي لا تعد ولا تستقصى مصففة على مد البصر مع اختلاف ملابسهم وكثرة مدافعهم وشدة حزمهم وزينة الجيش الراكب على عتاق الخيل، وقد أسرع في السير سعادة السلطان هو ومن معه من المريشالات والجنرالات وأسرعنا من خلفهم قاصدا بذلك المرور على العساكر وقد ظهرت لنا من فروسيته حال السبق التي ما رأينا مثلها قط ولا سمعنا بها إلى أن استوعب العساكر وكلهم يدعون له بالنصر وطول العمر، ولا زال أسعده الله هو ووزراؤه حتى صعدوا محلا مرتفعا كالمنبر وأمر بإخراج الرايات الجديدة فأخرجت ودفعها لكبراء العساكر وذهب بهم أرشده الله إلى حضرة كبراء الدين براياتهم فصعد المنبر معهم ومكث قليلا ورجع السلطان ومن معه إلى الموضع الأول وركب فرسه وأمر بتسراد العساكر فمرت بين يديه مع كبرائهم وكلهم يدعون له بالنصر والظفر وطول العمر، فمنهم الراكب والراجل ومنهم جيش لابس كسوة من حديد ليست كالزرد المعروف بل كل كسوة

واحدة تبرق وتتلألأ وهم راكبون على عتاق الخيل وكلهم مسرعون في السير ومظهرون الفرح والسرور، ورجع السلطان إلى محله بعد انقضاء المهرجان وتفريق الرايات وتسراد العساكر مع أولئك الرؤساء ونحن معهم إلى قصره السعيد، فسلمنا عليه وافترقنا منه، وسرنا مع سعادة وزير الحرب إلى أن وصل إلى داره وبعد التسليم عليه سرنا إلى محلنا متعجبين مما رأينا في ذلك اليوم من كثرة الجيش ولا سيما من الجيش المتدرع بدروع الحديد وذلك من أعجب ما رأينا، ولما سألنا عن عدد العساكر التي حضرت هذا المهرجان أخبرونا أنهم ثمانون ألف نفر، كما حضر كثير من الناس من جميع الأجناس قد قطعوا المسافات البعيدة وأبذلوا الأموال الجزيلة لمشاهدة حسن تلك النزهة، وجملة من حضر مائتان وأربعون ألف شخص وما منهم إلا ويقول ما رأينا مثل هذا اليوم قط في الحسن والبهاء، وفي اليوم الحادي عشر من مايو أمرونا بالمشي ليلا لمجتمع بدار أقاموها فسيانات العسكر وفيها وليمة عظيمة فدخلنا دارا في غاية الوسع والرفاهية والجودة، ومما يدل على كبرها أنه حضر في ذلك العرس ثمانية عشر ألف إنسان نساء ورجالا أوقدوا فيها ثلاثين ألف شمعة ولا يمكن لشخص أن يعرف صاحبه الذي في آخر المحل إلا بواسطة الناظور لطول مساحة المحل وعرضه مع آلات الضرب المتبوعة وقد أظهر جميع من حضر الفرح والسرور وافترقنا في آخر الليل وذهبنا إلى محلنا نحدث بعضنا بعضا في حسن ما رأينا وفي الغد كتب لنا سعادة السلطان يأمرنا بالحضور في داره السعيدة فسرنا عشية ذلك اليوم السعيد ولما دخلناها وجدنا بها خلقا كثيرا من كبراء الدولة قابلونا أحسن قبول وأجلسونا معهم للعشاء وأكرمونا أحسن إكرام وتحدثوا معنا أحسن حديث وذلك من إنعام سعادة سيدنا السلطان وجوده علينا ولما تممنا

العشاء ذهب بنا سعادة السلطان إلى موضع في بعض جهات الدار وذلك محل نزهتهم فيه أناس يمزحون بلسانهم وإن كنا لا نفقه ما يقولون إلا أننا تحققنا به أنه عجب لإنصات أولئك الأكابر وضحكهم ودام ذلك اللعب إلى أن انتصف الليل، ولما انقض ذلك البسط طلبنا الإذن من سعادة السلطان فأذن لنا بالانصراف بعدما سلمنا عليه وسرنا إلى محلنا في غاية الفرح والسرور شاكرين فضله نتحدث بتلك النعمة وأنعم علينا سعادة الوزير سيدنا الجنرال سانطارنوا بضيافة في داره السعيدة فلما دخلناها وجدنا بها جماعة من كبراء الدولة وغيرهم ففرح بنا هو ومن معه وأجلسونا للأكل معهم وأكرمنا أحسن إكرام وأتحفنا بهدايا أعطى لكل شخص منا عطاء جزيلا مناسبا لشأنه الرفيع، وتحدث معنا أطيب الحديث، فمن بعض ما تحدث به معنا أن قال لنا يا معشر العرب نعلمكم أنكم عندنا بمنزلة إخواننا الفرانساوية ولا فرق بينكم وبينهم عندنا في المحبة والمكانة فأجبناه بأننا لا نعتقد خلاف ذلك، وقد شاهدنا منكم صحة ذلك واستكثرنا خيره وشكرنا فعله، وأنعم علينا بأن سار بنا إلى حضرة سعادة السلطان ومعه سعادة الجنرال دوماس وسعادة السيد الكلونيل دوريو فلما دخلوا بنا لتلك الحضرة البهية سلموا على السلطان وسلمنا عليه ففرح ورحب بنا وأتحفنا بلذيذ خطابه ولين مقاله وإظهار المحبة والميل، فمن جملة ما أنعم به علينا من الهدايا بتفريق التحف أعطى لكل واحد منا ما ناسب قدره بعد ما كان أنعم علينا بنواشين الافتخار بحضرة أولئك الأكابر كالسيد الوزير والسيد الجنرال والسيد الكولونيل دوريو ثم أمرنا بالرجوع إلى بلادنا فسلمنا عليه وافترقنا وبقيت عقولنا وقلوبنا عندهم وكل اجتماع للفراق يؤول، وشرعنا في الخروج من حسناء باريس إلى ليون خرجنا منها يوم ثمانية عشر من

مايو وما كدت أستطيع فراقها لأن أهلها كانوا للقلوب مغناطيسًا ولأن أفكارنا متعلقة بتلك المعاهد والأزهار وتلك الجنة التي تجري من تحتها الأنهار والاجتماع بأولئك الأخيار، وكنت مهما سبقني عقلي إلى التصور أو الاذكار رأيت به ما يملأ العين قرة ويسلي عن الأوطان كل غريب فسقى الله تلك البلاد التي قصر عليها الحسن والإحسان وحيّا تلك المعاهد تشتهاها الأنفس وتتحلى بسماعها الآذان وتتناقل محاسنها الأسفار مترنمة بها في سائر الأقطار فكم للناس اشتياق إلى منتزهاتها وساحات مسراتها لما تجري في النفوس مجرى سلاف وتكون لرياض الآداب أبهى قطاف لا زالت محاسنها ظاهرة، ومسراتها باهرة، فلا أقسم بهذا البلد وحسن منظره الذي يشفي من الكمد، ولو نظر الشاعر إلى بهائها المتألق لآثرها بقوله في وصف بلاد جلق :

ديار لها الحصباء در وتربها عبير وأنفاس الرياح شمول

تسلسل منها ماؤها وهو مطلق وصح نسيم الروض وهو عليل

وكان دخولنا إلى مدينة ليون يوم تسعة عشر من مايو نزلونا أحسن منزل وأكرمونا غاية الإكرام فمن ما أنعم به علينا سعادة الجنرال كسلطان أن جعل لنا مجمعا جمع فيه العساكر وذلك المحل خارج البلاد في غاية الاتساع وكان بعث لنا شرذمة من خيالة وكراريس ركبنا فيها وساروا بنا إلى ذلك المحل فلما وصلنا أنزلنا في موضع مرتفع لنرى جميع ما يقع وأمر أهل المدافع والخيالة والعساكر المتدرع بالحديد وغيره مما لا يأتي عليه الحصر وقد رأينا للعساكر في ذلك اليوم ما لم نر قط من رمي المدافع والضرب بالسيوف والرمي بالبنادق وخفة تلك العساكر وتدربيهم وخدمتهم وترتيبهم وذلك من أعجب ما رأينا ودام ذلك اللعب من وقت الزوال إلى عشية ذلك اليوم وبعد الفراغ دخلنا المدينة مع سعادة واليها

المذكور إلى داره فودعناه وبتنا ليلتنا وشرعنا في التوجه إلى مرسيلية قصدناها يوم إحدى وعشرين من مايو في مركب الدخان في النهر إلى بلدة آفينيوا بالقرب من مرسيلية وركبنا في كروسة دخان ودخلنا مرسيليا في يوم 22 من مايو أقمنا بها أياما ووجدناها من أحسن المدن عمارة وتجارة واسعة ذات أشجار وبساتين ومرسى في غاية الوسع والترصيف والتنظيم مملوءة بالسفن وفرح أهلها بنا فرحا شديدا ثم خرجنا منها قاصدين مدينة الجزاير يوم 25 من مايو في مركب الدخان في البحر المالح ودخلنا الجزاير يوم الخميس السابع والعشرين من مايو وجدنا ثغرها مملوا بالأحباب منتظرين قدومنا ثم نزلنا من المركب واسترحنا وفي الغد قصدنا بالزيارة السيد الجنرال راندون والي الجزاير واستكثرنا خيره وشكرنا سعيه حيث كان هو المتسبب في نعمتنا أسعده الله بمنّه آمين.

تعليق على عربي في باريس

لقد قمت بتصوير هذه الصفحة أثناء تواجدي بجامعة Michigan Ann Arbour في شهري ماي ـ جوان 2004، كأستاذ زائر وشد انتباهي لهذه الورقة لأنه سبق لي وأن اطلعت على رحلة بن صيام، والقارئ لهذه الورقة المنقولة أصلا عن Journal des Débats الفرنسية في ماي 1852 وأضفت إليه انطباعات الأمريكيين العدائية للإسلام والمسلمين من أيام الرئيس الأمريكي الثالث طوماس جيفرسن وهنا نكتشف الصورة النمطية السلبية للمسلمين في العقل الأمريكي من خلال مصادر متعددة من أهمها : خطب وكتابات رجال الدين الأمريكيين الأوائل وما أثاروه في جدلهم الداخلي من إشارات إلى المسلمين وما أوردوه من طعون وردود ضد الإسلام. ويتضح ذلك جيدا في الوثائق السياسية والدبلوماسية، مثل خطابات الرؤساء الأمريكيين الأوائل، والمعاهدات بين أمريكا ودول

المغرب العربي، والرسائل الدبلوماسية، ذات الصلة وكذلك السير الذاتية التي كتبها العبيد الأمريكيون في الجزائر وليبيا عن تجربتهم في الرق في البلاد الإسلامية، وانطباعاتهم عن الأرض والسكان والثقافة.

د. علي تابليت

AN ARAB IN PARIS.

The *Journal des Débats* has a curious article relative to the opinions which the Arab chiefs, who were present at the *Fêtes des Aigles* on the 10th of May, have formed of European civilization. The *Débats* gives the following account of the matter :—" In public the Arabs are reserved and dignified, enveloping their feelings in silence as their bodies are covered with their mantles. How, then, could any one contrive to learn what the Arab chiefs think of the Parisians and of the *fêtes* and marvels which France offered to the view of these children of the desert? But General Randon, the governor-general, has contrived to induce some of them to speak. At his request, two of the Arabs who came to Paris have undertaken to write an account of their journey in the Arab journal of Algiers, the *Mobacher*. One of them, the Hakem of Milianah, Si-Sliman-ben-Siam, has already commenced the publication of his narrative. He begins by rendering homage to God. Whether they express themselves in prose or poetry, the Arabs are always accustomed to begin by raising their thoughts to the Author of all things. He then states that he embarked in a vessel, which he compares to 'a bird that comes from heaven, with outspread wings to repose on the surface of the waters.' Cette is the first town at which he arrives. The first great marvel of civilization which strikes him is, he says, the railway from that town to Montpelier. His description of it is full of singular *naiveté*. 'The appearance of this sort of road,' he says, 'is admirable. We saw a subterranean passage, of which the sides and roof are lined with stone. The carriages, carried on with great speed, occupied six minutes in passing through it. A horseman would have been an hour and a half in doing the same distance ; for the distance which it would take him a whole day to travel can be done by these carriages in an hour. The vehicle which gives the impulsion is like the others, but is of iron, and supplied with a machine similar, it is said, to that which puts steamers in movement. To heat it a black stone, peculiar to certain countries, is used.' The Hakem arrives at Montpelier, the fountains and gardens of which he admires. He next proceeds to Avignon, where he visits the palace of the Pope ; and then goes to Lyons. At the sight of that city he utters a cry of admiration. 'Eyes have never seen and ears have never heard anything of the kind.' He visits the cathedral and the museum. Of the latter he says that 'it contains figures sculptured in precious marble, and such perfect paintings that they only want the power to speak. By a singular effect of art they seem to look at you, wherever you place yourself.' Having bidden adieu to Lyons he comes to Paris. On the way, 'the five or six lines of wire suspended for the electric telegraph' attract his attention. He inquires what they are, but does not manifest the curiosity respecting them which might have been expected. At Paris, the lines of the poet El Botheri on Damascus occur to his mind—'Damascus has shown us all her beauties—she has fulfilled all our hopes.' His judgment on the Parisians is marked with kindly feeling, which may, perhaps, be said to be carried too far. He praises the men of the lowest classes for occupying themselves with the most profound questions ; but if he had been in Paris a few years ago, and had heard drunken groups discussing politics, he would probably have thought differently. He also congratulates the Parisians on their wit, their grace, and obliging disposition. He speaks of the prince-president in the most pompous terms. He also speaks in high terms of General St. Arnaud, and especially of General Daumas, who is so well versed in the Arab language and customs. He goes to the Opera, and falls into an ecstasy of admiration, especially at the sight of 'young girls flying amidst leaves of pasteboard.' The Hippodrome also astonishes him ; he is quite alarmed at seeing three men rise in a large machine, and disappear among the clouds ; but he is tranquillized on being told that they will return. He describes his visit to other places, and especially to the Bibliotheque Nationale. He notices that among its literary treasures are some of the rarest Mussulman works ; and of its vast reading-room he says :—'It is so long that it would be impossible from one end to recognize one's dearest friend at the other.' He terminates his account of his adieu to the president by saying—'We were obliged to part ; men only meet to part.' The Hakem concludes his narrative with his return to Algiers. Even if it had no other merit, his work would possess the incontestable one of originality. The only Orientals who have hitherto taken the trouble to write on Paris were the Persians of Montesquieu, who would have been very much embarrassed if they had had to write about the East. The Hakem of Milianah is at least a personage of real life."

رحلة محمد السعيد بن علي الشريف إلى باريس 1852[1]

جرت في نفس التاريخ مع رحلة ابن صيام. وقد ترافق الرجلان في السفر لنفس الغرض وحياة السعيد علي الشريف مليئة بالعبر. فهو من أشراف الأدارسة، حسب سجلات عائلته، وترجع الأسرة إلى عبد السلام بن مشيش، "وهنا أفتح قوسا لأقول أنني تعرفت على عائلة ابن مشّيش في القنيطرة بالمغرب، مع الدكتور مصطفى مشيش الساكن بالقنيطرة والذي له مؤسسة ثقافية بنفس المدينة : وذلك في مؤتمرين حول محمد بن عبد الكريم الخطابي".

استوطنت الأسرة زواوة منذ قرون، وبنى جده، الشريف موسى وعلى زاوية شلاطة التي أصبحت مركزا مشعا في زواوة وخارجها. وكان محمد السعيد هذا هو الذي جعل سمعة كبيرة لزاوية شلاطة[2]. التي اشتهرت أيضا باسم زاوية ابن علي الشريف، وزاوية آقبو. وهي من أقدم وأشهر الزوايا العلمية في المنطقة، ومما تجدر الإشارة إليه أن أكثر الزوايا في الجزائر تتواجد في آقبو وبجاية.

---

1. أنظر :
Marthe et Edmond Gouvion, *Kitab Aâyane el-Marhariba*, Prévence d'Alger, 1920, pp. 11-13.

2. أبو القاسم سعد الله، *تاريخ الجزائر الثقافي*، ج 1، ص 265.

كان لمحمد السعيد مؤلفات وطلبة ومريدون أوائل القرن التاسع عشر.

ولد محمد السعيد في عام 1820 في يلولة. وكان عمره عشر سنوات عندما وقع الاحتلال وبعد هجومات قام بها بوجو خلال سنوات 1844 و1847 بدأت العلاقات مع الشاب ابن علي الشريف تتّضح أكثر. فقد تولى للفرنسيين منصب إداريا، رغم طابع الزاوية الديني منذ 1847، وعمره 27 سنة وتعلم الفرنسية وأصبح لاحقا من الأعيان واستقبله نابليون الثالث ومنحه وسام الشرف وسافر إلى باريس في سنة 1852 مثل ابن صيام.

ووقع الاحتلال الثاني لزواوة سنة 1857، وكان عليه أن يظهر التعاون مع الفرنسيين وكان أكبر اختبار واجهه سنة 1871 أثناء ثورة المقراني والحداد، ورغم مناوراته، فإنه واجه المحاكمة وحكم عليه بالسجن خمس سنوات بعدها.

وقيل عنه أنه كان يبذّر ماله على النساء عند زيارته المتكررة للجزائر العاصمة كما قيل أنه من شاربي الخمر، وأنه كان متأثرا بالعادات الفرنسية. مثّلَ المسلمين الجزائريين في معرض لندن سنة 1862.[1]

د. علي تابليت

جامعة الجزائر في 28 ديسمبر 2012

---

1. أبو القاسم سعد الله، *تاريخ الجزائر الثقافي*، ج7، ص 476، 478.

هذه الرحلة الخيرية فيما عاينه ناظمها الآتي ذكره ببر فرنسة هدية منه لسعادة والي المملكة الجزائرية السيد الجنرال راندون المرجو منه قبولها بالرضا والإحسان لأن خديم الكريم لا يذل ولا يهان.

الحمد لله الذي جعل اللسان عنوان عقل الإنسان، وآلة تظهر سرّ الجنان بفصيح العبارة وصريح البيان، وسبحان الله فالق الأنهار والأزهار، وخالق الليل والنهار، الذي فضل قوما على أخرى ببداهة وهمم كبرى، علم الإنسان بالقلم ما لم يعلم، وجعل له خمس حواس منها سمع وبصر وشمم، أحمده سبحانه وتعالى حمد من اعترف بذنبه فأقر، ثم شكر نعمته وللبلاء صبر، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد الذي سافر إلى الشام وهاجر إلى المدينة، وأسرى من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وكان جبريل رفيقه وأمينه، وعلى آله وأصحابه وعترته وأحبابه، أما بعد فيقول العبد الفقير إلى سيده ومولاه، السائر حيث وجهه وولاه، محمد السعيد بن علي الشريف صاحب زاوية شلاطة، القاطن دارا ومنشأ بقطر بجاية، جعله الله ممّن أطاع رئيسه واتقى مولاه، كي ينال ما يرجوه ويتمناه، لما رقم اسمي في جملة المسافرين إلى دار الملك باريس أشار علي بعض الأمراء المحبين بتسطير ما نشاهده ببر فرنسة، وما نعاينه من الأمور القريبة والأشياء العجيبة، فأجبته لمراده خشية الملام، غير أني ألفيت شيئا يعجز اللسان عن إدراكه مع قصر فهمنا وعدم لحوقنا بهذه المرتبة التي تتفاخر بها فحول الرجال المطلعة على دقائق المسائل وعزو الأقوال وحيث لم يسعني الخلاف أقول ما استطعت بحمد الله تعالى وحسن توفيقه أن ييسر أمورنا ويبلغنا الأمل، ويجعلنا من الباذلين جهدهم في معونة هذه الدولة الفرنساوية بصدق نية وحسن عمل، حتى أكون ممن يسعى في خير البلاد والعباد، ومطفيًا نار الفتنة بصلاح وسداد،

فإن العافية أهم كل مهم، وبها يتم العمل وتزداد الخيرات والنعم، والعامة تقول العافية تربي الأولاد والأفراد، وتنفي الضر والعناد، لا سيما الحِرف الأربع لا تقوم بنيتها إلا بهناء وإصلاح فساد، فانظر أيها العاقل بعين الاستبصار، وتأمل تأمل ذي اعتبار، تجد سبب نصرة الدولة الفرنساوية العدل، فلذلك أورثهم الله الملك حتى مهدوه وساروا فيه بأحسن سيرة، وكل مفسد أدحضوه، فتلك نصرة من الله يؤتيها من يشاء، وحقيق أن العدل ميزان الله في أرضه، وأنه مقرون بالإحسان، فإذا كان الملك عدلا وجبت محبته كما وجب الافتراق عنه بالجور والظلم، قد سأل حكيم الإسكندر عن العدل والشجاعة أيهما أبلغ فقال إذا استعملت العدل استغنيت عن الشجاعة، لأن عدل السلطان أنفع من خصب الزمان، وهؤلاء الفرنساوية جمعوا ما بينهما لكمال عقولهم وتدبيرهم للعواقب، وحسن سياستهم، وأنهم أخذوا من رأي الحكماء، واقتبسوا من أخلاق الملوك القدماء، ما يصلحون به الرعية ويسوسون به أمور المملكة، ورأوا أن إصلاح الملك يكون بالرفق بالرعية وأخذ الحق منهم من غير مشقة، والتودد إليهم بالعدل، وأمن السبيل، وإنصاف المظلوم من الظالم، وصلاح الملك أيضًا بصلاح الوزراء والأعوان إن صلحوا صلح، وإن فسدوا فسد، والنظر في المظالم من قواعد الملك، وقوانين العدل الذي لا يعم الصلاح إلا بمراعاته، ولا يتم التناصف إلا بمباشرته، وعلى كل حال إن ما حصل من رغبة أهل هذه العمالة في طاعة الدولة الفرانساوية إلا لوقوفها على العدل بأحكام شرعية وقوانين مؤسسة حيث أن الملك بالجنود، والجنود بالمال، والمال من البلاد، ولا بلاد بلا رعايا، ولا رعايا إلا بالعدل.

ويقال أن رجلا من بعض العقلاء غصب من بعض الولاة ضيعة فقدم إلى المنصور شاكيا وكان إذ ذاك متوجها إلى الحج فقال أصلحك الله

يا أمير المؤمنين أذكر حاجتي أو أضرب لك قبلها مثلا، فقال بل اضرب المثل، فقال إن الطفل الصغير إذا نابه أمر يكره فإنما يفزع إلى أمه إذ لا يعرف غيرها وظانا منه أن لا ناصر له غيرها، فإذا ترعرع واشتد بكاره كان فراره إلى أبيه، فإذا بلغ وصار رجلا وحدث به أمر شكاه إلى الوالي لعلمه أنه أقوى من أبيه وأمه، فإذا زاد عقله شكا إلى السلطان وقد نزلت بي نازلة وليس فوقك أحد أقوى منك إلا الله عز وجل فإن أنصفتني وإلا رفعتها إلى الله تبارك وتعالى في هذا الموسم فإني متوجه إلى بيته وحرمه، فقال بلى ننصفك وأمر أن يكتب إلى واليه برد ضيعته إليه.

كما وقف يهودي لعبد الملك بن مروان فقال يا أمير المؤمنين بعض خاصيتك ظلمني فأنصفني منه وأذقني حلاوة العدل فأعرض عنه ثم وقف إليه ثانيا فلم يلتفت إليه فوقف له مرة ثالثة وقال يا أمير المؤمنين إني رأيت التوراة المنزل على موسى كليم الله–عليه السلام– إن الإمام إذا رفع إليه الظلم ولم يزله فقد كان شريكا فيه، فلما سمع عبد الملك ذلك فزع وبعث في الحال إلى من ظلمه فعزله وأخذ لليهودي حقه، وكان بعض الأكاسرة ترك رمانة بعد موته فيها حب أكبر من النوى ومعها رقعة مكتوب فيها هذا من حب رمان عمل بالعدل، ويحكى أن المأمون جلس يوما للنظر في أمور الرعية من أول النهار إلى أن زالت الشمس، فكان آخر من تقدم إليه امرأة عليها أطمار رثة فقالت السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله فنظر المأمون إلى قاضيه يحي بن أكتم فقال لها يحي وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ما حاجتك فقالت شعرًا :

يا خير منتصف يهدى به الرشد ... ويا إماما به قد أشرف البلد

شكوا إليك عميد الملك أرملة ... عدا عليها فلم تقو به أسد

فابتد مني ضياعي بعد منعتها ... فقد تفرق مني الأهل والولد

فقال لها المأمون عبد الله بن هارون الرشيد:

من دون ما قلت عيل الصبر والجلد وأقرح القلب هذا الحزن والكمـد

هـذا أوان صـلاة الظهـر فانصـرفي وأحضري الخصم في اليوم الذي أعد

المجلس السبت إذ يقضى الجلوس له وأنصفك فيه وإلا المجلس الأحـد

فلما كان يوم الأحد جلس فحضرت أول الناس فقال لها من خصمك فقالت هاهو ذا فأشارت إلى العباس، فقال للحاجب أجلسه معها، فجلس للحكم فأخذ بيده وأجلسه معها، فجعل كلامها يعلوا على كلامه فقال لها الحاجب مهلا يا أمة الله فإنك إنما تخاطبين الأمير أعزه الله، وأنت في مجلس أمير المؤمنين، فقال له المأمون دعها فإن الحق أنطقها، وإن الباطل أخرسه ففلجت حجتها عليه، فأمر برد ضياعها وأمر لها بعشرة آلاف درهم فأخذتها وانصرفت، تأملوا في مثل هذا تجدوا الفرق العظيم بين سيرة إقليم أهل الجزائر وسيرة أهل فرنسة في جميع الأمور، وساير الفنون، لاسيما الحراثة والغراسة، فمن المعلوم أن سائر الأعمال تصلح بصلاح الوالي وتفسد بفساده، ودليل ذلك بعض الملوك كانوا اشتهروا بالظلم والجور حتى قيل أنه لا يقدر عليه أحد من أهل البادية على شراء شيء من السوق قل أم جل، قيل من انتسب للدولة من أبناء جنسها حتى إذا تقدم غشيما قبلهم يحل به الضر الشديد والجسارة والسفاهة مع فساد ما اشتراه بالأرض إما بتكسير أو تبديد أو تمزيق وغير ذلك من الأمور الذميمة، كما تناقلت أخبار بعض أعوان ملوك اندثر الآن حكمهم كانوا اشتهروا بالشؤم والظلم، منها ما قيل أن بعض المخازنية نزلوا ذات يوم بحي من أحياء العرب فبادروا إليهم وأنزلوهم وقابلوهم بذبح الغنم ضيفة، والشعير لخيلهم علفة، وكانوا نزلوا متفرقين

يعني كل واحد في خيمة فنادى أحد المخازنية على رب البيت لمكيدة استنبطها فلما أتاه يعثر في أذياله قال يا أخي إن لي ألما شديدًا بظهري ومن عادتي نأمر أهل بيتي يحزموني مع سارية فنريد منك تربطني مع عمود الخيمة من رأسي إلى رجلي بحبل متين، ففعل رب البيت غصبا عليه بعد أن أنكر ذلك وإياه، ثم نادى المخازني يا غيثاه يا ويلاه فخرج إليه أصحابه وجملة أناس وتأملوا في أمره ومسكوا رب البيت وضربوه ضربًا موجعا ولزموه بخطية جزيلة، وكثير ما وقع من مثل هذه النوادر، فقس أيها العاقل على ما لم يقل مما يطول شرحه، ويتعسر سرده، وإلى الله المرجع فكيف يستقيم الملك بهذه الأفعال الذميمة، والمظالم الردية القبيحة، مع أن الله تعالى غيور ولا يغفل عن مثل هذا، وإنما الظالم يوجله الله حتى إذا أخذه لم يفلته طرفة عين، فالذي نعلمه أن الملك يدوم مع العدل ولو كان للروم المعاند، ولا يدوم مع الظلم والجور ولو كان لمسلم عابد، وقد أجاد من قال

فلـم أر مثـل العـدل للمـرء رفعـة ولم أر مثل الجور للمرء أضيعا

هذا وإن كان العدل كامل في قطر من الأقطار أو ايالة من الايالات فإنه نادر، والنادر لا حكم له، وبالجملة إن العدل الكلي الحقيقي لا يوجد إلا قليله، فإنه كالحلال الصرف، أو الإيمان الكامل، وإطالة كلامنا في هذا المعنى جوابا لبعض الظرفاء من إخواننا حيث أنكروا علينا هذه المقالة، وزعموا أن العدل والإحسان لهم لا لغيرهم، مع أن عامة العباد امتازوا هذه الأحكام بالنسبة لما قبلها فوجدوا الفرق العظيم في ذلك، فلو كان الخير فينا ما سبقنا أحد لمثل هذه الفضيلة، وإنما نحن أولى بها من كل جنس، وأقرب إليها من كل إنس، فكيف لو كانت بوطننا صافية، ما ذهبت الدول السالفة على أسوء حال وخيبة آمال،

فالحاكم الكيس يذكر عند الظلم عدل الله فيه، وعند القدرة قدرة الله عليه، قد كان أحد الملوك رقن على بساطه هذه الأبيات:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا فالظلم مصدره يفضي إلى الندم

تنام عيناك والمظلوم منتبه يدعوا عليك وعين الله لم تنم

فالحمد لله على هذه النعم الشاملة، والخيرات المترادفة التي كانت لها هذه الدولة سببا، وكثيرا ما شهدنا من إحسانها لنا، وجلب المنافع لعامتنا، أي عامة المسلمين، كسعيها في مصالح تعلم الصبيان حين جعلت لهم مدارس عظيمة لحرفة القلم التي هي أشرف الصنايع، ومن المركوز في الأسماع في القديم والحديث وعليه الإجماع بعد الكتاب والحديث أن خير الأمور العلم في كل فن، لأن ثمرته في الدنيا والآخرة على صاحبه تعود، وإن فضله في كل زمان ومكان مشهود، قيل إن فضل العالم كفضل القمر على ساير الكواكب، وحقيق أن من لم يتعلم في صغره لم يتقدم في كبره.

تعلم إذا ما كنت ليس بعالم فما العلم إلا عند أهل التعلم

تعلم فإن العلم أزين للفتى من الحلة للحسناء عند التكلم

ولا خير فيمن عاش ليس بعالم ولو نال أبواب السماء بسلّم

هذا وإن العلوم أربعة الفقه للأديان، والطب للأبدان، والنجوم للأزمان، والنحو للسان، واعلم أن العلوم على ثلاثة أصناف صنف ينفع قليله وكثيره، وصنف يضر قليله وكثيره، فأما الصنف الذي ينفع قليله وكثيره فهو على أربعة أقسام فرض عين، وفرض كفاية، ونفل ومباح، وأما الصنف الثاني وهو الذي ينفع قليله ويضر كثيره كعلم النجوم إذ هو

قسمان حسابي وهو الذي ينفع وقد نطق القرآن بأن مسير الكواكب محسوب، وهذا القسم محمود لأنه يزيد في الإيمان إذ بمعرفته يستدل على وحدانية الله تعالى، فإن إتقان الصنعة دليل على جلالة الصانع وعظيم قدرته.

فالقسم الحسابي الذي عيناه فهو معرفة علم هيئة الأفلاك وترتيبها وسيرها ومعرفة أدلة القبلة ومواقيت الصلاة وأوقات الليل والنهار، وكم مضى من كل واحد منهما من ساعة وعدد ساعاتهما ونهايات بلوغ الساعات ونقصانها، ومداخل السنين الشمسية والقمرية، ومعرفة أوائل الشهور العربية والعجمية، ومداخل الفصول والبروج والمنازل، وأما القسم الثاني فهو الذي يضر يعني الاستدلال على الحوادث بالأسباب من التثليث والتسديس والمقابلة، والتربيع بتأثير الكواكب وهو يضاهي استدلال الطبيب بالنبض على ما يحدث من المرض، وليس العلم بها مذموم بذاته وهو معجزة إدريس–عليه السلام– وإنما يذم ويضر الحكم بتأثيره، ومن اطلع على شيء من إصابتها فليعلم أنها مؤثرة بقدرة الله تعالى وإرادته لا مؤثرة بذاتها، وأما الصنف الثالث وهو الذي يضر قليله وكثيره فهو علم السحر وعلم الشعوذة، وعلم التصوير، وعلوم الطبائعيين، وعلم الطلسمات، وليس من العلوم مذموم، وإنما تذم في حق العباد إذا عملوا بها، وهذا الصنف على قسمين: حرام ومكروه، فالحرام ما يجلب ضررا لنفسه، أو يعمل به في ضرر الغير، وإلا فهو مكروه، وما ذكرته من الأصناف الثلاثة على سبيل الجملة، وإلا فكل صنف تحته علوم، وكل علم يحتاج إلى تفصيل وكلام طويل ليس هذا محله، وإنما جلبنا بعضه توطئة لما أردناه مما عليه الدولة الفرانساوية، وما شهدناه في برهم كما أذكره بعد، ولا يحصل العلم به والنظر في تلك الأمورات إلا لمن كان عالما،

وأما الجاهل بالمعاني فلا يدرك المحسوسات وإن أعيدت عليه فلا يفهمها، ولذلك مدح العلم وأهله، وذم الجهل وأهله، لأنّ العالم يفهم بالإشارات ما لا يفهمه الجاهل بأوضح العبارات، قال سفيان بن عيينة ـ رحمه اللّه ـ أول العلم الاستماع، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر، وينبغي ألا يدع طالب العلم فنا من العلوم المحمودة ونوعا من أنواعه إلا وينظر فيه نظرا يطلع على مقصده وغايته، ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيه، وإلا اشتغل بالأهم فليستوفه وتطرق من البقية، فإن العلوم متفاوتة وبعضها مرتبط ببعض، قال بعض العلماء أقصد من أصناف العلوم ما هو أشهى لنفسك، وأخف على قلبك، فإن نفاذك فيه على قدر شهوتك وسهولته عليك، واعلم أن العلوم كلها شريعة، ولكل علم خاصة وفضيلة، والإحاطة بجميعها محال، ومن ظنّ أنه قد أحاط بها خبرة عد متن الجهال، وإذا كان العمر لا يتسع لجميع العلوم فالحزم أن يأخذ أهمها، قال الشاعر :

ما حوى العلم جميعا أحد ... لا ولو مارسه ألف سنة
إنما العلم بعيد أغواره ... فاتخذ من كل شيء أحسنه

وقال بعضهم لو كنا نطلب العلم لنبلغ غايته كنا بدأنا العلم بالنقيصة، ولا كنا نطلبه لننقص كل يوم من الجهل ونزداد من العلم، ومن أهم العلوم الشرعية علم الفقه، ومن العلوم الأدبية علم النحو، قال بعضهم :

كل العلوم لعلم الفقه أتباع ... وإن تجافته أفهام وأطباع
والنحو أركانه التي يقوم بها ... روح وقلب وإبصار وإسماع
وليس يجحد أهل النحو أفضلهم ... الأرنيم قليل خير مناع

ويقال من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن تعلم الفقه عظم مقداره، ومن تعلم الحديث قويت حجته، ومن تعلم الحساب جزل رأيه، ومن تعلم الأدب حسنت أفعاله، وقالوا علم الأدب ذكر لا يحبه إلا الذكور من الرجال، ولا يبغضه إلا مؤنثهم، وهو يحسن اللفظ، ويرفع صاحبه في مجالس الملوك والفضلاء وذوي الرئاسات، وقال عبد الملك بن مروان من أراد أن يكون عالما فليطلب فنا واحدا، ومن أراد أن يكون أديبا فليتفنن في علوم الأدب وغير ذلك مما لا يسعه هذا الكتاب، وأعظم الجهل كثرة اللحن للرؤساء والأئمة والقضاة، وهنا حكاية تزيد نشطا لعلوم النحو لمن كان رئيسا أو قاضيا تقدمت امرأة إلى قاض من القضاة لتدلي بحجتها فبادرها بالكلام فقال لها كاتب القاضي يقول لك القاضي جامعك شهودك كلهم فسكتت، فقال لها كاتب القاضي يقول لك القاضي جاء شهودك معك، قالت نعم، ثم قالت للقاضي هلا قلت كما قال كاتبك، كبر سنك وعظمت لحيتك فغطت على عقلك.

وحيث ثبت فضل العلم وذم الجهل فكيف تؤثر مقالة عند الجهال الذين يزعمون الخروج عن دينهم إذا تعلم صبيانهم في المدارس التي أعدها البايلك لهم وخصوصا اللسان الفرنساوي لاحتياجنا إليه غاية في الحال والمآل، وبه يتوصل ذو الحاجة إلى حاجته، واستعاب حجته على الوفاء والكمال، ولم يعلموا الحديث لجهلهم وعدم ممارستهم للكتب، الحكمة ضالة المرء متى وجدها التقطها، وأيضا اطلبوا العلم ولو بالصين، وقال بطليموس الحكيم: خذوا الدرّ من البحر، والمسك من الفأرة، والذهب من الحجر، والحكمة ممن قالها، ولا يظن أحدكم أن يرتد باتخاذ الحكمة والعلم من غير جنسه، فلا ضرر في ذلك خصوصا لمصلحة، وكما رأينا من إحسانه للفقراء والعمات والأرامل

من المسلمين حيث جعل لهم محلا يستقرون فيه، ورتب لهم معاشا، مع هذا لم يلبثوا فيه لإلفتهم بالإهمال والسؤال بأبواب الديار، وكما كلف الأطباء في البوادي والحضر بعلاج المرضى من قصد وغيره، أينما كانوا دون أجرة، مع ذلك كثير من ينكر هذا من أهل البوادي جهلا منهم، ولذلك حرموا إفادة الأطباء، وعلم العلماء، قال بعض الفضلاء:

إن المعلـــم والطبيـــب كلاهمـــا   لم يبـذلا نصـحا إذا لم يكرمـا

فاصبر لـدائك إن جفـوت طبيبـك   واصبر لجهلك إن جفوت معلمـا

ولم يعلموا أن الأسباب لا تنكر، وأن علم الطب أمر عظيم، يتعلمه الإفرنج في المدارس حتى يتمهروا في فنه، ومن جهل البعض يقول الوحش لا تحتاج إلى بيطار، يعدون أنفسهم من البهائم، ولم يدروا أن الدواب لهم آدمية كالآدمي على كل حال، وبالجملة فالذي أقامته الدولة الفرنساوية في مدة سنين يسيرة ببلد الجزائر وعمالاتها من بناء وقناطر وثغور وسدود أودية ومطاحن وأماكن ونحو ذلك لا يقومه غيره في مائة سنة والله أعلم، هذا لا يكمل إلا بمبالاة الأمير في الأشياء والاعتناء بما يزيد خير الرعايا وفضلهم، وأنه يتأمل في غناء العامة حتى لا يبقى فقير كما ببلادهم، يغني كل أعمى.

فالكتان والقطن والنيلي والكشنيلية وغير ذلك إلى ساير الحبوب، وبالجملة فخير هذه الدولة معروف، كما شهد في عمله مع أعراش ناحية المغرب في بعض السنين القحطية أمدهم بالزرع لزراعتهم تسلفا، والبعض إنعاما مع أنهم كانوا له أعداء، هذا دليل نصرته، وأخذه لقلوب الناس، والمحسن لمن أساء، فلنرجع إلى المقصود الذي نحن بصدده، لما غمرت البلاد عدلا وعافية وحصل للرعايا رغبة ومحبة في هذه الدولة وطرح

من كان معاندًا سلاحه طلعة غرة المعظم سعادة السلطان لوي نابليون بونابرت وانتشار سطوته اقتداء بسيرة عمه الذي لم يأت الزمان بمثله، فأراد إنشاء مهرجان عظيم، ويسرد جيوشه لأخذ الرايات من يده الكريمة، ولذلك عزم على إحضار ولاة العرب فانتخب إذ ذاك سعادة والي الجزائر السيد الجنرال راندون بعض الأعيان ذوي القدر والشأن من كل عمالة رجالا، فأهل عمالة وهران سافروا من مرساها، وأهل قسنطينة من سكيكدة، وأهل الجزائر من مرساها، وكان رئيس القوم في هذه السفرة المباركة الليث المقدام السيد الكولونيل دوريوا، وقد التقى الجميع بباريس وقد امتطينا وابورًا عظيمًا وقت الزوال يوم 25 أفريل وكنت وقتئذ في ألم شديد لاضطراب البحر وخشيتي منه حيث لم أركبه مدة عمري قط، وبمجرد السير وحركة السفينة عفاني الله، وربما صحت الأجسام بالعلل، ولا زلنا نسير في شدة تحرك واضطراب نحو 55 ساعة، حتى لازم أكثرنا الأرض وتوسل بالشفيع يوم العرض، فوقع عندنا موقع بعض الظرفاء خاطر بنفسه من ركب البحر وأشد منه خطرا من جالس الملوك بغير علم ومعرفة، وتحقق عندي أيضا قول العلامة الصفتي شعر :

رأيت جميع الهايلات محيطة بـي بوطني لأجل الحمل جارية البحر

فأقسمت عمري لا ركبـت سـفينة ولا سرت طول الدهر إلا على الظهر

غير أن المعتمد على الكريم لا يخشى من الخطب العظيم، وقد أجاد من قال: أن الإنسان إذا عاين كروسة النار على مسيرة أميال وأراد أن يقطع الطريق عرضا فلم يقدر على ذلك، وربما تلاقى معها لأنها أشد سرعة من الطير في طيرانه مع جرها الأثقال نحو الستين كروسة في كل واحدة جماعة أشخاص، وكنا ذات يوم مررنا بمغارة عظيمة في جبل

شاهق دخلوه باللغم في غاية التمكين، وإتقان أرصفته، فلم نر حيطانه إلا كالبرق الخاطف لسرعة السير، هذا وإن الطريق المارة بها هذه الكروسة مستوية جدا فلم يوجد بها محل مرتفع عن الأخذ قط، فبلغنا مدينة منوبيلي في 28 من الشهر المذكور، ولما استرحنا هنية بلوتيل نوفيي ذهب التعب والعناء، وتلذذ النظر بحسن تلك البناء حتى نسينا ما هو الأعز عندنا وقتئذ وانشرحت صدورنا بما عايناه من حسن البلاد وطيب هوائها، فدخلنا إلى حضرة جنرالها السيد رستلا رفقة عمدتنا السيد الكولونيل دوريوا فقابلنا ببشاشة ولين مقال، وتأمل في كل واحد منا تأملا يتضمن الوداد وبلوغ الآمال، فرحب بنا غاية الترحيب كما يليق بالمقام، ووجه معنا أحد قبطاناته في كياسة ولياقة ليسير معنا في ساحة تلك البقاع فلا زلنا متفسحين إلى أن أشرفنا على بستان عظيم قد جمعت فيه أزهار متفتقة ورنات أطيار في طبقات مختلفة، ومياه متدفقة يغنيك مقعده عن حاسة السمع والوتر، وجميع الملاهي قد عانقته سواقي جارية ملتفة ساقا عن ساق يمينا وشمالا كثعابين منحدرة وله اصطبانات ومقاعد تشرح الصدور، كالخارج من ظلام إلى ضوء ينور، فحصل لنا برؤية هذه البقاع صقيل بصر، وتسريح أذن للسماع وفرحنا هناك فرح العقيم بالذكر، أو الضال في الفيافي بطلوع البدر إلى أن رمقنا ماء يصب من أعلى مكان في قوة شديدة كاللجين في لمعان فسألنا عن منبعه فإذا هو من جبل رأيناه بعينه على مسافة ستة أو سبعة وثلاثين ساعة من البلد مرتفعا عنها بيسير والماء بحركات وبناء محكم إلى أن يبلغ تلك الروض الأزهر الأسعد وقد أجاد من قال :

الـرَوض مُقتبـلُ الشَـبيبةِ مونِـق ... خِضِـلٌ يَكـاد غَضـارةً يَتَـدفَقُ

وقد ارتاعَ من مرِّ النسيم بِهِ ضُحىً ... فَغَـدت كَمـائمُ زهـرهِ تَتفتَّـقُ

ومرَّ شُعاعُ الشَمسِ فيهِ فَالتَقى مِنها وَمنهُ سنا شموسٍ تُشرقُ
وَالغُصنُ ميّاسُ القوامِ كَأنه نشوانُ يصبح بِالنَّعيم وَيغبقُ
وَالطيرُ يَنطِق معرِباً عَن شَجوه فَيكاد يُفهَمُ عَنهُ ذاكَ المنطقُ
وَالنهرُ لَمّا راحَ وَهوَ مسلسَلٌ لا يَستَطيع الرَقص وهوَ يُصفَقُ
فتلك الأيام لا تملّ فَإِنَّها رَيحانَةَ الزمَن الَتي تُستَنشَقُ

فيا لها من أرض تحي الغرام، وبها يلذ المنام، ويطيب المقام، فهنيئا لأهلها من عز وسلوان، ودوح أرض به تميل الأغصان، وكم لها من مقامات فاخرة، وعوائد جميلة فائقة فبتنا تلك الليلة يا لها من ليلة قرت بنا حلوة إن رمت تشبيها لها عبتها لا يبلغ الواصف في وصفها حدا، ولا يلقى لها منتهى، وفي الغد ركبنا كروسة النار التي تقدم ذكرها ولا زلنا في ظل البساتين والأشجار يمينا وشمالا والقلب في سلوان ولم يقع بصرنا على شبر من الأرض خاليا من منفعة الغراسة إلى أن قابلنا بلدة نيم فمن عنوان ظاهرها علمنا حسنها ونزلنا في مدينة طراسكوا هنية نحو ربع ساعة بإزائها نهر عظيم، ثم عدنا إلى كروسة النار وجدينا في السير إلى مدينة أفينيوا فوجدناها عظيمة البناء، وفي وسطها قصر ببناء قديم يسمى قصر البباصات يعني القسيسين في غاية التشييد والتحكيم :

قصر عظيم ترى كل الجمال به وأسعد الدار تبدو من جوانبها

قد بني بالصفاح والعمد وجروا في إتقانه إلى غير أمد، وكما رأينا صورًا حصينًا وحذوه نهر عظيم يسمى الرون، وبناء آخر أيضا في غاية التحفة فبتنا هناك ليلتين بينهما يوم في لوتيل دورون ما أحسنها من دار

نظيفة جميلة، ولأهلها أدبيات بريعة بديعة، ثم ارتحلنا راكبين وابورًا عظيمًا في النهر المذكور عريضا جدا يبلغ مسافة عرضه ألف ذراع قد وصفت حافتيه بغرايب البناء محكمة بقناطر من حديد تمر تحتها مراكب دخانية وتجارية، ثم مررنا على مدينة ليون وبإزائها أيضا قنطرة عظيمة، ولها بناء عظيم مشيد عجيب، قد حفت بالأشجار خشية الرقيب، وفي نصف النهار مررنا بمدينة سانطاد دريول ثم على مدينة افيفي ومدينة أخرى.

ثم على أربعة دشور منهم واحدة معدة لصناعة الحديد بغرايب الآلات وإتقان الصناعات، ولا زلنا سايرين إلى أن بلغنا مدينة فلانس هذا وإن جميع المدن التي ذكرناها كلها حسناء ذات أشجار باسقة، وأطيار ناطقة، وأنهار متدفقة، حولها قناطر كبار، وساحتها تموج بالحي موج البحار، فكم بها من عاقل ذكي، وتاجر غني من نزهات وطرب وسلو خاطر، ونفي غيظ وكرب، أناس مشتغلون بتحصيل الفوائد، ونيل المكاسب والمطالب والتفاوت للخصل في استنباط كل جديد متولعين بأخبار الأمصار قريب وبعيد أيامهم مشطرة لأشغالهم، وأوقاتهم مقسمة لأحوالهم فأجلهم يتردد بين سيف وقلم، وبعضهم يخوض بين زرع وضرع وخيرات ونعم، فنزلنا هذه المدينة فلانص على التسعة ساعات ليلا فبتنا إلى الصباح، ثم ركبنا أيضا وابورا على تلك النهر فسرنا ساعتين، وتعطلت حركة المركب لضعف الماء بذلك المحل، فنزلنا بالبر وسرنا وكان لنا في تلك السير خيرا وراحة واصبناها هناك بسط لم يخالطه كدر، وزرنا مدينة بوسطها نهر عظيم يسيل جودا كاهله، وعليه قنطرتان محكمتان من حديد في غاية البناء والصنع الغريب، ومررنا بمدينة أخرى عاينا بها شرذمة من الخيالة قلنسوتهم من نحاس أصفر لونه كالذهب وهم في غاية الانحزام، ثم مررنا أيضا بمدينة

وتجارها يتسببون في اللوح والحديد المصنوع، وإنها عظيمة البناء، وعلى السبعة ساعات بلغنا مدينة ليون التي هي ثاني دار مملكة فرانصة، وهذه القرى التي مررنا بها أكثرها مشتملة على البيع والشراء، عظيمة الأبنية، مزينة بالأشجار، مسلسلة متصلة ببعض غالبا، خصوصا مع جد السير حتى أن الإنسان لا يظن في بعض الأحيان إلا أنه في بلدة واحدة، والمسافرون غالبا في ظل الأشجار المرصوصة بوجه مرتب مطرد في سائر الطرق.

إن أهل الاستيطان بباريس نحو مليون من الأنفس وزيادة، ومحيطها سبع فراسخ فرانسوية ومطايها فضلا عن غيرها من المدن ولا تزال تسمع فرقعة العربات يعني الكراريس ليلا ونهارا دون انقطاع، واعلم أن أهل باريس مختصون من بين كثير من أهل فارانسة بذكاء العقل، ودقة الفهم، ودليل ذلك أنهم لا يميلون بالطبيعة إلى الجهل والغفلة كما رأينا بغيرها، ولا يقلدون أصلا وإنما هم يحبون معرفة الشيء بأصله والاستدلال عليه بنفسه، حتى علم عامتهم القراءة والكتابة ودخلوا مع غيرهم في الأمور العميقة على حسب مراتبهم، وكل صاحب فن من الفنون يحب أن يبتدع شيئا من فنه لم يسبقه أحد به، أو يكمل ما ابتدعه الغير، ومما يعينهم على ذلك زيادة على الكسب حب الرياء والسمعة ودوام الذكر، ومن طباع الفرنساوية التطلع والتولع والترقي لساير الأمور، لاسيما اللباس فإنه غير مقرر عندهم وليس ذلك تغيير كلي وإنما ينتقلون من القلنسوة إلى الشسية، وتارة يلبسون البرنيطة على شكل ثم ينتقلون ببعده إلى شكل آخر سواء في صورتها أو شكلها، ومن عادتهم المهارة والخفة، فإن صاحب القدر تراه يجري في الأزقة كالصبي، ولهم طيشان وتلون فينتقل الإنسان من الفرح إلى الحزن وبالعكس، ومن الجد إلى الهزل

وبالعكس، إلى أن يرتكب في اليوم جملة أمور متضادة، هذا في غير الأمور المهمة، وأما في الأهم فآراؤهم السياسية لا تبديل لها ولا تغيير أصلا، بل كل أحد يدوم على مذهبه ورأيه، ومن جملة أمورهم كثرة ميلهم إلى أوطانهم مع ذلك يحبون الأسفار والاغتراب، فقد يمكث المسافر سنين عديدة ومدة مديدة جايلا بين المشرق والمغرب ملقيا نفسه في المهالك لمصلحة تعود إلى وطنه، ومن خصائلهم محبة الأجانب والميل إلى معاشرتهم لا سيما إذا كان الأجنبي ذا همة وثياب نفيسة، وإنما حملهم على ذلك الرغبة في السؤال عن أحوال البلاد وعادات سكانها لينالوا مقصودهم في الحضر والسفر، ومن غرائب أوصافهم وقوفهم غالبا على إيصال الحقوق الواجبة عليهم، ولا يهملون أشغالهم بالكلية، فإنهم لا يملون ولا يكسلون من أشغالهم المترادفة، غنيهم وفقيرهم، صغيرهم وكبيرهم، ذكورهم وإناثهم، لا يفترون عن الخدمة ما أمكن، وذلك هو الحق الواجب فانظر كسلنا وعجزنا، فلذلك أغلب الناس عند المسلمين فقراء، وأكثرهم همل، وعلى كل حال إن الكسل وكثرة النوم يبعدان من الله ويورثان الفقر، وأيضا من طبعهم حب الرياء والسمعة دون كبر وحقد، وأنهم يقولون في أنفسهم قلوبهم أسلم من قلوب الغنم عند الذبح، وإن حصل لهم ضرر كالليوث عند الغضب، فمهما اغتاظ اختار الموت على الحياة خصوصا سبب داء الفقر وبلية العشق، ومن خصائلهم الحميدة وفاء الوعد، وعدم الغدر والخيانة أحسن الله إليهم فذلك الحق البالغ، وقد اتفق القاطبة على أن وعد الكريم ألزم من دين الغريم، قد اتفق الفرس على أن الأعمال خمسة وعشرون، منها خمسة بالقضاء والقدر، وهي الزوجة والولد والمال والملك والحياة، وخمسة بالكسب والاجتهاد وهي العلم والكتابة والفروسية ودخول الجنة والنار، وخمسة

بالطبع وهي الوفاء والمداراة والتواضع والسخاء والصدق، وخمسة بالعادة وهي المشي في الطريق، والأكل والنوم والجماع والبول المفرط، وخمسة بالإرث وهي المجال وطيب الخلق وعلو الهمة والتكبر والرياء، وأما النساء فإنها سيدات رجالهن، وهم كعبيدهن تحت أمرهن لم تسعهم مخالفتها قط جميلات أو غير جميلات، فأقول أن علم النساء لم يدركه الفرنساوية والله أعلم، كيف وإنهم على رأي نسائهم وفي قبضتهم مع أنهن ناقصات عقل ودين، على كل حال فلو اطلع المسلمون على ذلك تطلعا شافيا لاستغربوه وتعجبوا منه، وإنما النساء فتنة تلعبن بعقول الناس، ويعتقد فيها العداوة التامة حتى لا يكمل لعدو مشورة، وما من فتنة في الدنيا إلا وسببها امرأة نعوذ بالله من شرهن ومكرهن فإنهن أشراك الإشراك، وأوهاق الأزهاق، وأسواق الفساق، والحقيقة كما قال الشاعر:

إن النساء كأشجار نبتن لنا ... منهن مرا وبعض المر مأكول

فإنهن متى ينهين عن طبع ... فإنه واجب لا بد مفعول

وهذا على حسب الطبيعة فعند أهل البوادي الهمل نساؤهم كدوابهن، وعند أهل المدن غالبا في المشرق كأمتعة بيوتهم، وعند الإفرنج كالصبيان المدللين، ويحتمل أنهم يقدرون على الخلاص من شرهن لحسن سياستهم والله أعلم، ولنسائهم حسن وجمال وقد واعتدال في بياض وحمرة وقليل وجود السمرة عند أهلها المتأصلين بها حيث أنهم لا يختلطون في الأنكحة بالزنجية أصلا لأنهم لا يعدونهم بالجمال قط، بل السواد عندهم من صفات الفج ولذلك لا يحسن عند الفرنساوية استخدام جارية سوداء في الطبخ ونحوه، لما بلغهم أن السودان ليست لهم نظافة ولهم رائحة خبيثة، مع أن نساء فرنسة بارعات الجمال

واللطافة حسان المسايرة والملاطفة بتبرجهن بالتزين الغريب، ويمتزجن مع الرجال في الولائم امتزاج الماء بالراح، وربَّما حصلت معرفة بينهن وبين بعض الرجال خصوصا في البالات والمراقص شيء عجيب بنغمات الموسيقى والمغاني أمر غريب فما من بيت من الأكابر ذوي الأقدار إلا ولها آلات النغمات مطربات إلا أننا لا نفهم معنى مغناهم أصلا لعدم معرفتنا بلغتهم لكن شجاها لا تجهلوه كما قال الشاعر في مثل هذا الأمر:

لم أفهـــم معانيهـــا ولكـــن ودت كبدي فلم أجهل شجاها

فكنــت كــأنني أعمــى معنــى يحــب الغانيــات ولا يراهــا

هذا بعض ما سمعناه وعايناه من عجائب التياتر والبالات العظام بحضرة سعادة السلطان لوي نابليون سنذكره بعد إن شاء الله، ولما استرحنا قدمنا إلى بستان البايلك المسمى جردان دبلانط الذي لم يخلق مثله في ساير الأقطار عدى الزمان المتقدم، ولا وقفنا على خير مثله في الدنيا قط، وفيه ما لا يصفه الواصفون، ولا يحرره الكاتبون لاتساع أرضه واستوائها وكثرة أشجاره واختلاف أنواعها، وتلون نباته، وتباين أصنافها، وانهمار عناصيره وعذوبة مائها، وامتداد أغصان الأشجار، والتفافها، وأزهرت أنوار بعض الأنواع فأضاء نوارها، وتعتقت من الأكمام كالعروس الخارجة من خدرها، وآوت إليه الوحوش واستظلت تحتها، واجتمعت فيه الأضداد من الوحوش، فالعجب من إلفتها، فصارت كالنوع الواحد في مباركها وهي متأدبة بآداب سياستها، ومحكمة بحكم حكامها وذلك لفشو العدل وانتشاره من أرباب الدولة حتى عم الوحوش في أوكارها، وهذا مما يستغرب في هذا الزمان الصعب الذي تنافرت فيه الآدميون مع عقلها ونطقها، وتألفت واجتمعت فيه الوحوش العادية الضارة

كالفيلة والكركدانية والسباع وغيرها، فسبحان من ألف بين الثلج والنار، وهو قادر على أن يؤلف مع الشاة والسبع الضار، ولكن ألفة الحيوانات تؤخذ من حسن تدبير أربابها والسياسات، وشهد ذلك من أرباب المواشي، فمن كان منهم مدبرا عاقلا أدبها، وأقام بها وعلى المرعى والورود لها فبلغت فيها مناها فأخضر بطنها، وخصب بدنها، ولين شعرها من صوفها ووبرها، وأما من نام عنها وأهملها ضلت عن المرعى والورود فصارت من أهل القنوط والشرود، صارت أرض الكلأ إلى أرض الصلب فكثر فيها المهالك والعطب، أعجفت سمانها وضعف قويها، ويبست أضراعها، ومات نتاجها، وجعد شعرها، وعدمت منفعتها، وفقرت أربابها، وذلك لقلة عقولهم، وعدم تدبيرهم، وكثرة ملاهيهم بما لا يعنيهم فأحاط بهم الفقر وهم لا يشعرون، وصاروا لما في أيدي الغير ينتظرون ويطمعون، ثم مررنا على هذا البستان العظيم الذي ذكرنا طرفا من أنواعه قدمنا إلى طياطر ويقال له أيضا أبرا وهو الموضع المعد للعب المغريات والعجائب العظيمة التي تضيق عن حملها الطروس، وتكل عن وصفها وعدها الأسنة والضروس لاختراع تلك الأمور الحَسينة، واستنباطها وحسن سياستهم فيها وإتقانها، وفي الغد قدمنا إلى موضع يقال له السيرك وهو الموضع المعد للعب بالخيل وهذا المحل أذكر فيه طرفا من الخيل وفيمن اتخذها أولا، ومن ركبها، وصفاتها المحمود منها والمذموم.

فأقول وعلى الله أتكل وبه أستعين أول من اختارها آدم –عليه السلام– لما عرض على آدم ما خلق من شيئ فسماه باسمه، ثم قال له اختر من خلقي ما شئت فاختار الفرس، فقال له اخترت عزك وعز أولادك خالدا ما خلدوا فيها، ما بقوا بركتي عليك وعليهم، ما خلقت خلقا أحب إلي منك ومنهم، قال مؤلف كتاب الحيوان: الفرس طبعه

الزهد في المشي، ويحب سايسه ويعجبه راكبه، ولا يحب الأولاد وهو غيور، ويعرف المصيبة، وذكر الأصبحي أن رجلا متعرضا جاء إلى عمرو بن العلاء فقال يا أبا عمرو لم سميت الخيل خيلا فبقي أبو عمرو وليس عنده في ذلك جواب فقال لا أدري، فقال الرجل لكني أدري، قال أعلمنا نعلم، قال لاختيالها في المشي، فقال أبو عمرو لأصحابه بعدما ولى الرجل اكتبوا الحكمة عن معتوه، وأول من ركب الخيل إسماعيل بن إبراهيم ـعليهما السلام-، قال إنما كانت الخيل وحشا لا تطاق أن تُركب حتى سُخرت لإسماعيل فكان أول من رسنها وركبها ونتجها، وعن ابن عباس -رضي الله عنه- قال: كانت الخيل وحشا كسائر الوحوش فلما أذن الله عز وجل لإبراهيم وإسماعيل ـعليهما السلام- برفع القواعد من البيت قال الله عزّ وجلّ إني معطيكما كنزا ادخرته لكما، ثم أوحى الله إلى إسماعيل أن اخرج فادع بذلك الكنز، فخرج إسماعيل إلى أجياد وكان موطنا قريبا منه، ولا يدري ما الدعاء ولا الكنز، فألهمه الله عز وجل الدعاء فلم يبق على وجه الأرض فرسا بأرض العرب إلا جاءته، ومكنته من نواصيها وذللها الله له، وفضل الخيل مذكور في المطولات، ومن بعض فضائل الخيل ما روى حُديج عن أبي ذر ـرضي الله عنه- حين مر عليه فوجده ينزع فرسه الأجدل فقال: ما هذا الفرس يا أبا ذر؟قال: هذا فرس لي لا أراه إلا مستجابا، قال وهل تدعى الخيل فتجاب، قال نعم ما من ليلة إلا والفرس يدعوا فيها ربه، اللهم إنك سخرتني لابن آدم، وجعلت رزقي بيده، فاجعلني أحب إليه من أهله وماله، اللهمّ ارزقه مني وارزقني على يده، وكانت العرب لقدر الخيل عندها وإعزازها إياها تقتص من لطمة الفرس، وتتغير بذلك، وتطلب الثأر فيه كما تطلبه في أنفسها، ذكر ذلك حماد عن سماك

بن حرب، ونهى عمر بن عبد العزيز عن ركض الخيل إلا في حق، ويسمى في أعضاء الفرس من أسماء الطير الهامة، والنسر، والنعامة، والفرخ، والعصفور، والديك، والدجاجة، والغراب، والخطاف، والصقر والقطات الهامة أعلى الرأس وهي أم الدماغ، وهي من أسماء الطير والنعامة جلدة رأس الفرس التي تغطي الدماغ، والعصفور أصل منبت الناصية، والديك هو العظم الناتئ خلف الأذن، والغراب رأس الورك، ويستحب الفرس أن يكون شبيها في خلقه ببعض الحيوان، فمن ذلك الضبي والكلب والحمار الوحشي والثور والنعامة والأرنب والذئب والثعلب، فمما يستحب من خلق الضبي طول وظيفى رجليه وتأنيف عرقوبيه، وعظم فخذيه، وكثرة لحمهما، ويستحسن فيه من خلق الكلب : هرت شدقيه، وطول لسانه، وكثرة ريقه، ومما يستحسن فيه من خلق الحمار الوحشى : غلظ لحمه، ومن خلق الثور : عرض جبهته، وقلة لحمها، ومن النعامة : طول وظيفيها، ومن البعير : طول ذراعيه، ومن الثعلب: تقريبه.

وأما ألوان الخيل أصولها أربعة : بياض، وسواد، وحمرة، وصفرة، والحقيقة أن الأصل البياض والسواد، لأن الحمرة والصفرة إليهما يرجعان، وغرة الفرس اسم علم لكل بياض في وجه الفرس، وحقه في القدر أن يكون فوق الدرهم، فإذا كان البياض في وجه الفرس قدر الدرهم فهو قرحة، والفرس أقرح، والعرب تتشاءم بالقرحة إذا لم يكن معها بياض في شيء من أعضاء الفرس، فإذا كان مع القرحة أدنى بياض خرجت من حيز الكراهة، والتحجيل إذا جاوز البياض من التحجيل ركبة اليد، وعرقوب الرجل فهو فرس مخبب، فإن جاوز البياض إلى العضدين والفخذين فهو بلق مسرول، فإن كان البياض بيديه دون رجليه، فهو أعْصَمُ، وإن كان البياض برجليه ويديه فهو محجل،

وأما الدائرة وهى النخل التى تكون في الخيل منهن دائرة المحيا وهى اللاصقة بأسفل الناصية، ومنهن دائرة اللَّطَاة، وهى التى في وسط الجبهة، وإن كانت دائرتان قالوا فَرَس نطيح، ومما يمدح أيضا في سبق الخيل أيضا الأشقر، ويمدح أيضا الغر المحاجل الثلاث، مطلق اليمين، وعيوب الخيل على ضربين: خلقة، وعادة، فالخلقة بدنية، والعادة فعلية، فمن عيوب الخلقة استرخاء حافتى الأذنين من أصولها، وكذا قليل شعر الناصية وكثيرها يسمى أغم إذا كان غطى عينيه، ومما يذم فيه طول أحد أذنيه، وكذلك من ارتفع وسط عنقه دون سائره، والضير كوز وهو الحاد الكفل، والصلود وهو الذي لا يعرق، والوقيع هو الذي يحفى سريعا والأرح هو المفترس، والمضطر وهو الضيق الحافر، وقصر اللسان، وتكره حمرة العين في الدهم لأنه يتهم بالحرن، ومما يكره الأعشى وهو الذي لا يبصر بالليل، والكلام في الأمور التى تكره في الخيل طويل لا تتحمله هذه الرحلة ويؤدي إلى السآمة، ولنذكر شيئا في تعليم ركوب الخيل على اختلاف حالاتها، ينبغى لمن يريد أن يتصرف على الدوابّ أن يتعلم ما لا غناء به من إحسان الركوب على السرج والعري وإمساك العِنان، ويتعلم أصولا من أعمال الفروسية يستعان بها على ركوب الخيل والثبات عليها، واعلم –أرشدنا الله وإياكم– أن أصل الفروسية الثبات وأن مبدأها إنما هو الركوب على العري من الخيل، ومن لم يتدرب أولا على العري لم يستحكم ثبوته في الغالب، بل يكون أبدًا قلقا في سرجه، لاسيما عند خببه وركضه، فلا يؤمن سقوطه إن اضطرب فرسه أو أصابته سيئة، فمن أراد أن يتفرس على العري فليلبس ثيابا خفافا مشمرة، وليلجم فرسه، ويشد عليه جُلاّ من صوف أو شعر وثيق الحزام، فإن الركوب على الجلّ أثبت على المجرد، ويقف عن يسار

فرسه عند منكبه، ويمسك عنان لجامه بيده اليسرى، وإن أخذ العرف مع العنان فلا بأس به، ويثب بسرعة وخفة، فإذا استوى على ظهره جمع يديه في العنان عند كاهل الفرس، ونصب ظهره، ولزم بفخذيه موضع دفتى السرج من ظهر الفرس ويتقدم قليلا، فالتقدم أحسن على العري من التأخر، ويمد ركبتيه وساقيه وقدميه إلى كتفيْ الفرس حتى يمكنه أن ينظر إلى إبهام قدميه، وليكن اعتماده على اللزوم بفخذيه، فبذلك يكون الثبات، وكل من لازم ركوبه غير ذلك فلا ركوب له ولا ثبات، وتسوية العنان أصل في الاختيار والإتقان، ثم يخرج فرسه من الوقوف إلى المشى بهمز خفيف بعقبيه، ثم ينقل فرسه من المشى إلى الخب زيادة الهمز بعقبيه زيادة خفيفة فيخب خبا لينا ليحفظ نفسه فإن الخب يكاد يقلع الفارس من سرجه، لاسيما عند ابتدائه وعند جذبه، ولا يطول في الطلق، فإن الطويل فيه يفسد الخيل، ولا سيما التى يعمل عليها بالرفع، فإن كان الفرس لينا ويعلم أنه ينحبس في جذبة واحدة فليحبسه ولا ثلاث جذبات، ويحبسه في الرابعة بوقفة منها. وتكون كل جذبة ألين من التى قبلها ؛ ولا يقبض رأسه عند جذبه، وليكن حبسا رفيقا متوانيا مرة بعد أخرى، ولا يرسل العنان بين الجذبتين لئلا يعود الفرس إلى الجري. وليعدل يده بالعنان عند ذلك، ويكون حبسه له باستواء، وليحذر قصره من جانب وطوله من جانب فإن اعتدال العنان للفرس وللفارس كالميزان، وحسن التقدير في ذلك عنوان العقل وشاهد النبل، وتعديل مقدم الفرس ومؤخره آكد ما يُعتنى به أولا وآخرًا، فليحذر الميل من أحدهما عند الاستواء، وكثير من الخيل إذا حبسه غير العارف قلعه عند ذلك من سرجه، وليحذر عند الجذب من إدماء فم الفرس باللجام، فقل ما يدميه إلا من لا معرفة له بإمساكه، ولا تقدير

عنده في عنانه، وليكن اللجام زكيا وهو المعروف عندهم باللزمة وما أشبهه، فإنه من لجم الفرسان. ويكون ثقله وخفته بقدر احتمال الفرس، فليجرب عليه اللجم فأيهم أخف وأطيب في فمه وجدته أحسن حالا فذلك لجامه، وعند النظر يظهر ما يصلحه من ذلك، وأن يكون الفرس يعلك لجامه فيستطيبه أحسن من أن يخافه فيشب به أو يطاطئ رأسه ؛ ولا يكون أيضا من الخفة بحيث يستهين به الفرس ولا يملك الفارس رأسه، فالاعتدال بين ذلك هو المقصود، وليكن عذره إلى القصر، فإن طوله ينقص من جرى الفرس، لا سيما الضعيف اللحيين، وبالضرورة يعلم أنه إذا ضرب اللجام أسنانه آذاه وقطع به عن كثير من الجري وشغله، وإذا قصر العنان أخذ اللجام بأنيابه واعتمد عليه وتروح إليه، وليكن العنان أيضا إلى القصر بحيث لا يتجاوز القربوس إلا باليسير، فإن طوله مشغلة للفارس، محير للفرس، فإذا أتقن ذلك كله وتعود الركوب على العري وصار له ذلك كالطبع، فقد ملك من الركوب أصله وحاز جله، فلينقل بعد نفسه إلى السرج، بعون الله تعالى.

فصلٌ : ومن أراد أن يتفرس على السرج، فالمستحب له أن يتخير سرجا متسعا ليتقلب فيه كيف شاء، لا سيما لمن أراد التعلم، فالمتسع أوفق له من الضيق. وليكن وثيق الخشب، واسع المجلس، ويكون جلده وثيقا من جلد حسن الدباغ يدور بالسرج، وحزام كل ذلك وثيق، وركابين معتدلي الوزن والتقدير والحلق، لا بالواسعة ولا بالضيقة، وثقلهما خير من خفتهما ويتوثق من سير الركابين والأبازم، ويتفقد مقدار طولهما وقصرهما ليكونا سواء، وبقدر الحاجة في الطول والقصر. وأن يكونا إلى الطول يسيرا أحسن من أن يكونا إلى القصر، فإنه إن قصر الركابين ربما اقتلع الفارس من سرجه عند وثوب الفرس وعند جذبه في الجري، فلا يأمن السقوط، لا سيما إن راغ الفرس أو شب.

ولكل رجل فيهما حد ينتهي إليه، ويقال أنه كأثواب اللباس من تعد حده وبارز قده ثقل عليه ملبوسه وتعذر قيامه فيه وجلوسه، فالذي يصلح من ذلك أن يعتمد على مقعدته في مقعد سرجه، مع انبساط ساقيه، واعتماده على ركائبه حتى يكون كالقائم المالك لجميع جسده المتصرف باعتدال في كل عضو من بدنه فإذا أراد الركوب عليه شده بيديه وتولى أمره بنفسه ولم يتكل فيه على غيره، فإن تولاه غيره فليمتحنه عند ركوبه احتياطا بحركته ونزوله، ومتى كان الحزام رخوا مال السرج بفارسه لا سيما إن أمسك السلاح، وذلك غير جيد، وأيضًا فإن السرج إذا اشتد لم يمل في ظهر الفرس، ولم يكد يدبره ولا يعقره، وهنا انتهى الكلام على تعليم الفروسية، ولو كان فيه طول لأن الحاجة قد مست إليه، وأيضا فهو كالجملة الواحدة مرتبط بعضها ببعض، ولا تتم الفائدة إلا بتمام أجزائها، وإذا اختل جزء منها اختل معناها كجملة الشرط لا تتم إلا بالجزاء، وبقي شيء في ذكر نبذة من الشعر في معنى ذلك وإيثار العرب الخيل على غيرها وإكرامها لها وافتخارها بذلك.

لم تزل العرب تفضِّل الجياد من الخيل على الأولاد، وتستكرمها للزينة والطرد، على أنهم لَيطْوَوْنَ مع شبعها، ويظمؤون مع ريِّها، ويؤْثرونها على أنفسهم وأهليهم عند حلول الأزمة واللأواء، واغبرار آفاق السَّنَةِ الشهباء، وعلى ذلك تدل أخبارهم وتشهد أشعارهم. فلنذكر من ذلك نبذة إن شاء الله فمما روي لأحد من بني عامر بن صَعْصَعة :

بني عامرٍ ما لي أرى الخيل أصبحتْ خماصا وبعض الضَّمر للخيل أفضل

بــني عــامرٍ إن الخيــول وقايــة أنفسـكم والمـوت وقْـتٌ مؤجَّـلُ

أبينوا لهـا مـا تكرمـون وباشـروا صيانتها، والصونُ للخيل أَجْمـلُ

متــى تُكرموهـا يُكْـرِمِ المـرءُ نفسـه وكلُّ امرئٍ من قومه حيثُ يَنْـزِلُ

وقال غيره وهو إسماعيل بن عجلان :

ولا مـالَ إلا الخيـل عنـدي أَعـدُّه وإن كنتُ من حُمر الدنانير مؤسر

أقاسِــمُها مــالي وأَطعِــمُ فَضْــلها عيالي، وأرجو أن أَعان وأوجرا

إذا لم يكن عنـدي جـوادٌ رأيـتُني ولو كان عندي كنزُ قارونَ مُعْسـرا

ولنرجع إلى ما نحن بصدده من ذكر رحلتنا وسيرنا في بر فرنسة من مدينة إلى مدينة، ومن رئيس إلى رئيس حتى انتهينا إلى باريس فقدمنا إلى زيارة المعظم الأرفع سعادة البلاد وزير الحرب وقابلنا بأحسن قبول، وله من السياسة والأدب شيء عظيم، وفي الغد قدمنا إلى زيارة المعظم الأرفع السيد لوي نابليون رئيس الدولة الفرنساوية وقابلنا بأحسن قبول، وأكرمنا غاية الإكرام، وأظهر البشاشة، وعظم قدرنا غاية، وجعل لكل واحد من أضيافه مغرفة وسكينة وشوكة وهى الآلة المسماة فورشيط حتى لا ينال الإنسان الدسم بيده أصلا، وأنهم لا يأكلون في أوانى النحاس ولو كانت مبيضة، فإنها للطبخ فقط، بل دائما يستعملون الصحون المطليات، ولهم مراتب معروفة للطعام، فأول الافتتاح بالشوربة، ثم اللحوم، ثم كل نوع من أنواع الأطعمة كالخضروات والمرقدات والمعاجن، ومن جملة التحف أن الصحون تكون في بعض الأحيان

على نوع الأطعمة الموضوعة فيها، ولهم سياسة ومبالات عظيمة بالضيف في وضع الطعام بين يديه أولا لأن لكل واحد صحن يأكل فيه وحده، وقدح للماء، ويصبون له فيه، ولهم شواهد الكلام بلين للخطاب، فهناك على موائدهم لذتين، أعنى لذة الأكل، ولذة الخطاب، كيفية البال خصوصى وعمومى، فيقال أن الخصوصى يشتمل على رقدات ومنارات عظيمة وكراسى للجلوس، ويحتمل أنها للنساء، ولا يمكن لرجل أن يجلس إلا إذا اكتفى النسوة، وبالجملة فالتعظيم للنساء أجل حتى إذا دخل أحدهم بيت صاحبه فيحيى صاحبة البيت قبل الرجل، ولا شك أن هذا الرقص عند الفرنساويين فن من الفنون يتعلمونه بالقلب والقالب والقريحة، وليس هو كالفسق إلا أنه بعيد عن طبيعة العرب، وعادتهم الرقص للنساء، وإن كان لبعض الرجال معرفة فلا يمكن له مع النساء أو مع نساء صاحبه، وقد رأينا بهذا البلد العظيم جماعة نسوة كأنهن أقمار وعليهن من الحلى ما يضىء كالمنار أوساطهن كالزنانير محزمة، وأردافهن الثقال تميل ميل العربة أعنى الكروسة، وكل إنسان يقف بقدره وجلاله عند رأس الفتية ويطلب من فضلها وإحسانها تشرف رقصة معه بخطاب لطيف وكلام ظريف حتى إذا أجابته بنعم فتأخذ اسمه بدفتر معها إلى وقت النهوض، كل أحد يتفق مع رفيقته وهكذا يتبادلون بالنساء إلى أن ترقص المرأة ثلاثة أو أربع مرات مع كل رجل مرة، ولكل فتية مشموم بيدها ومراوح لجلب الهواء، ووقعت نزهة عظيمة بتلك الليلة بالآلات والطرب، فسبحان من خص أهل هذه البلاد بالسياسة والأدب والعقل الوافر.

وبالجملة فإنهم يخدمون أضيافهم ويظهرون لهم الغنى وبسط النفس، فقد قيل البشاشة في الوجه خير من القِرى، فكيف بمن يأتي بها وهو ضاحك، ولله درّ شمس الدّين بن البدوي حيث قال:

إذا ما أتاك المرء للبذل قاصدا   فذل له وارم لديه المسالك

فكن باسما في وجهه رمت هللا   وقل مرحبا أهلا ويوم مبارك

وقدم له ما تستطيع من الفوري   عجولا ولا تبخل بما هو هالك

فقد قيل هذا سالف متقدم   تداوله زيد وعمر ومالك

بشاشة وجه المرء خير من القِرى   فكيف بمن يأتي بها وهو ضاحك

وفي يوم الاثنين جعل وليمة عظيمة التى دفع فيها الرايات لكبراء أجناده وفي ذلك اليوم أمور عظيمة لم تقع في أول الزمان ولا في آخره وقد اجتمعت فيه نحو المائتين وسبعين ألف إنسان من الأجناس الخارجة عن فرانسة وحضر في ذلك اليوم جمع وافر من عساكر فرانسة نو الستين ألفا من غير الخيالة والطبجية ورتبهم ترتيبا حسنا فتعجبنا في ذلك الترتيب الحسن، وفي ذلك اليوم العظيم ما يعجز الألسنة عن وصفه، وبعد ذلك قدمنا إلى موضع يقال له البال وهو الموضع المعد لاجتماع كبراء البلاد والأجناد، وكيفية البال خصوصى وعمومى، فيقال أن الخصوصى يشتمل على رقدات ومنارات عظيمة وكراسى للجلوس، ويحتمل أنها للنساء، ولا يمكن الرجل أن يجلس إلا إذا اكتفى النسوة، وبالجملة فالتعظيم للنساء أجل حتى إذا دخل أحدهم بيت صاحبه فيحى صاحبة البيت قبل الرجل، ولا شك أن هذا الرقص عند الفرنساويين فن من الفنون يتعلمونه بالقلب والقالب والقريحة، وليس هو كالفسق إلا أنه

بعيد عن طبيعة العرب، وعادتهم الرقص للنساء، وإن كان لبعض الرجال معرفة فلا يمكن له مع النساء أو مع نساء صاحبه، وقد رأينا بهذا البلد العظيم جماعة نسوة كأنهن أقمار وعليهن من الحلى ما يضىء كالمنار أوساطهن كالزنابير محزمة، وأردافهن الثقال تميل ميل العربة أعنى الكروسة، وكل إنسان يقف بقدره وجلاله عند رأس الفتية ويطلب من فضلها وإحسانها تشرف رقصة معه بخطاب لطيف وكلام ظريف حتى إذا أجابته بنعم فتأخذ اسمه بدفتر معها إلى وقت النهوض، كل أحد يتفق مع رفيقته وهكذا يتبادلون بالنساء إلى أن ترقص المرأة مع ثلاثة أو أربعة رجال ولكل فتية مشموم بيدها ومروحة لجلب الهواء، ووقعت نزهة عظيمة بتلك الليلة بالآلات والطرب، فسبحان من خص أهل هذه البلد بالسياسة والأدب والعقل الوافر.

وبعد ذلك أمر السلطان باجتماع أعيان الأجناد لإكرامهم أيامًا بضيفة عظيمة بآلاتها التى قدمنا ذكرها نتناول فيه الأشربة والمأكولات من الفواكه والمطعومات وذلك من حسن سياسة الملوك وآداباتهم مع أضيافهم، وبعد ذلك جعل لهم نزهة عظيمة في تلك الليلة، ثم دخلنا إلى دار السكة وهى المعدة لضرب الدراهم، وفي ذلك أمر عظيم غريب لا يقدر أحد عن وصف تلك الحركات التى استنبطها أهل فرنسة وهو شىء لا يخطر ببال من لا خبرة له بتلك الحركات، وتعجبنا لذلك غاية التعجب لكونه أمرا مهما، وفي مملكة فرنسة ستة وعشرون فابريكة معدة لضرب السكة وفي كل فابريكة يدخل منها كل يوم مليون فضة ومليون ذهبا للبايلك فهذه هى القوة العظيمة، وبذلك قويت أجنادهم، وقد طلب جنس من الأجناس يقال له السويد من رئيس الدولة الفرنساوية أن يجعل له حركة في باريس لضرب دراهمه لكونهم لم يقدروا على اختراع تلك

الحركات، وقبله السلطان في ذلك، وفي ذلك الحين جعلت لهم فابريكة غاية ما يكون في باريس وشرعوا الآن في ضرب الدراهم للجنس المذكور، فهذا دليل قوة مملكة فرنسة على غيرها من ساير الأجناس في الحرب والصنايع المغريات، وقد أخص الله سلطانها بالعقل الكامل والتدبير العظيم مع صغر سنه وكبر عقله، وذلك لنجابته وغزارة علمه، وكمال لبه، والعاقل يسمى عاقلا ولو كان في عمره سبعة سنين، والعائل يسمى عائلا ولو كان في عمره سبعون سنة، والنجابة هى الكمال بالطبائع المحمودة، فالنجيب من كثرة طبائعه الحسان في حال الصغر وضده من قبح جميع فعله وشان فيخلق للصغير همة عالية وشرف نفس ورأي تام وعقل وافر فيحمله ذلك على طلب المعالى ويمنعه ركوب الدنايا، فإذا كان مع الصغر أحب أن يكون رئيسهم وإذا ترعرع كان الأدب شعاره من غير تعليم، والحياء لباسه من غير تأديب، واعلم أن النجابة وهو الطبع الغريزي فليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب وهو ما كمل من قوة العقل وصحة الفهم وحسن الخلق والصمت والعزم والصدق والحزم والكرم والحياء والمروءة والصبر والشجاعة والعفة والقناعة وما أشبه ذلك، ولها نتيجة تتولد منها وتتوفر مع وقار العقل ومجاهدة الشهوة وحسن التدبير والسياسة وهو المحمود من العلوم والأدب والبلاغة وسرعة الجواب والحذر والاحتراس والعشرة والتودد إلى الناس والسؤدد والرياسة وصدق الفراسة واعتدال الحركات وما أشبه ذلك، وقد يولد بعض الناس على بعض هذه الأخلاق كما يشاهد في خلق بعض الصبيان.

وشكر لمولى النعمة فملك أزدشير أربع سنين وأحسن السيرة ثم هلك فعطفوا على سابور بن سابور فملكوه ولم يردهم عنه صغر سنه لما كان إليهم عنه من الحكم، ومما قال إن عندنا لكم قاضيا بالحق،

وأخذا بالعدل، وقولا بالصدق، ونظرا بالعطف، وسماعا بالحِلم، وسياسة بالحزم، وأن نثيب من أقلع عن الإساءة ثواب المحسنين فأحسنوا بنا الظن في يومنا، واصرفوا إلينا الأمل في غدنا، وأديموا الرغبة إلى الله في معونتنا، ولم تطل أيامه فمات، ومنهم أيضا بهرام حورا بن يزجر بن بهرام الأكبر ذكروا أنه لما ولد ليزجر ابنه بهرام ذكر له منجموه قوة ميلاده وسعادة جده وعظيم شانه ومسير الملك إليه، وذكروا مع ذلك أنه ينشأ غريبا في أمة ذات همم عالية وأحساب زاكية، وأنه يتناول ملكه بين ظهرانيهم فأجال فكره في الأمم المجاورة له والنائية عنه فوقع.

وكذا لو أبصر شيئا على صفة أو شم طيب الرائحة أو كريهها، أو ذاق حلوًا أو مرًّا أو حامضًا أو عذبًا أو مالحًا أو لمس شيئا فوجده لينا أو خشنا فإنه قد علم ذلك بالطبع من غير شك فيه، ويشارك الآدمى فيها ساير الحيوان، إذ للحيوان الشهوة والغضب والحواس حتى أن الشاة ترى الذئب بعينها وتعلم عداوته بقلبها فتهرب منه، والثانى لا تشاركه فيه الحيوانات فهو العلم العقلى، وينقسم إلى قسمين دنيوي وأخروي، فالدنيوي كعلم الطب والحساب والهندسة والنجوم وساير الحرف والصناعات، والأخروي كعلم أحوال القلب وآفات الأعمال والعلم بالله وصفاته وأفعاله، ولما جمع سلطان فرنسة السيد لوي نابليون الأوصاف الحميدة والنعوت الجيدة المجيدة وهى النجابة والعلم والعقل أحق لنا أن نذكر لكل صفة من تلك الصفات دليلا بمدح أبيات وهي:

أبوح بما به لوي نابليون موصوفا ... سلطان كبير في باريس بلا نكر

نــراه شــجاعا كريمــا ذا عــزة ... بتدبيره نال المراد مع النصر

لأنــه مالــك وابــن الملــوك وراثــة ... تفلقت منهم بيضة الطائر الصقر

متى تلقى خارجا منهم في شبابه تجده على إجراء والده يجري
هم ملأوا باريس مجدا وسؤددا ونكلوا أعداء وأبلغوا في النصر

هذا مما شهدته حواسنا كالدعوى، والدعوى تثبت بالدليل، ولذلك ذكرت كل صفة في محلها قدمت الكلام في العقل والعلم والعدل في أول الرحلة والنجابة هنا وقويتها بالدلائل والنقول والحكايات فيطمئن بذلك الواقف على هذه الرحلة ويتوثق بما ذكرناه فيها فتحصل له الإفادة بالعلم واليقين، ولنرجع إلى ذكر نبذة في العقل الغريزي والعقل المستفاد، فأما العقل الغريزي أي الطبيعى فهو مثل نور يشرق في القلب عند سن التمييز لا يزال ينمو ويزداد نموا على التدريج إلى أن يتكامل بقرب الأربعين سنة، وبعد الأربعين لا تحصل الزيادة إلا بكثرة التجارب، فمن كثرت تجاربه كانت زيادة في عقله، وأما العقل المستفاد فهو ما يتولد من كمال العقل من طبائع محمودة تُستفاد بأحد أمرين: أحدهما الممارسة وطول التجارب، فمن كثرت تجاربه أصاب رأيه، وحسن الرأي من كمال العقل، سئل أعرابى أي شيء أدل على كمال عقل العقل ؟ قال: حسن التدبير، وأما الأمر الثانى الذي يكمل به عقل العقل بالعلوم والأدب، فمن كثر تطلعه في العلوم، وكان له لب ازداد بصيرة ومعرفة إلى النظر في العواقب ورفع الشهوات المضرة الداعية إلى الشهوة العجلة، وقالوا لا ينبغى لمن كمل عقله أن يكون إلا في مكانين، إما مع الملوك متأدبا، أو مع العبّاد متعبدا، لكن لا يجالس الملوك إلا العالم بفنون الأدب، ولا يسلك في طريق العبادة إلا العالم بالشريعة، ومن سلك إحدى الطريقين قبل النجاح كان قريب الزوال والاجتياح، وقالوا العقل لكل

فضيلة أساس، والتقوى لمن كمل عقله لباس، نظر العاقل بقلبه، وخاطره، ونظر الأحمق بعينه وناظره :

إذا أكمل الرحمن للمرء عقله	فقد كملت أخلاقه ومآربه
يعيش الفتى في الناس بالعقل إنه	على العقل يجري حِلمه وتجاربه
يزين الفتى في الناس صحة عقله	وإن كان محصورا عليه مكاسبه
يشين الفتى في الناس قلة عقله	وإن كرمت أعراقه ومناصبه
وأفضل قسم الله للمرء عقله	فليس من الأشياء شيء يقاربه

ومن كمال العقل المشاورة في الأمور، والحزم والتأنى، وألا يستبد في أموره، فما اتكل امرؤ على عقله إلا عطب، وفيه كفاية والحاصل أن أهل فرنسة كلهم على قانون واحد لاعتنائهم بتعليم أساس المملكة واستقامتها وترقيهم فيها، ولذلك ثبت أساسها، ورصص بنيانها، وشيدت منارها، ونشرت في جميع الآفاق أعلامها، فلا يخافون منتزعا ينتزعها من أيديهم لثباتها على العدل، وتشييد منارها بالعقل، وحسن السياسة والتدبير، ونرجع إلى ما كنا عليه من مدح باريس والكلام في خزائن كتبها، وعظيم بنيانها، وهى دار مملكة فرنسة تحقق عندي أنها احتوت على جميع العلوم والفنون، وكلما تقادم أمرها ازداد عددها، وأغلب أهل فرنسة يبحثون ويتنازعون في مسائل علمية عميقة، لاسيما أطفالهم فإن الإنسان إذا خاطب الصغير في أمر فيجيبك بدلا عن قوله لا أعرف أصل هذا الشيء، ولأولادهم تربية عظيمة، وقد كنا تلاقينا مع الشبل شارل ولد سعادة المارشال بيجو فسأل كل واحد منا عن مقامه ووظيفته ومحله شيء عجيب، ثم إن أول الخزائن الخزانة

السلطانية، وفيها سائر ما أمكن في أي علم كان بأي لغة كانت مطبوعة أو منسوخة، من جملة الكتب المطبوعة أربعمائة ألف مجلد مع عدة مصاحف لا نظير لها أبدا، ولا تظن أنها في إهانة بل مصونة غاية الصيانة، وخزانة ثانية تسمى خزانة الأرسنال وهى الترسخانة، وأنها أعظم الخزائن بعد الخزانة السلطانية، تشتمل على مائتى ألف مجلد مطبوعة، وعشرة آلاف منسوخة فأغلبها في علم التواريخ والأشعار، ومنها خزانة مزارينة فيها خمسة وتسعون ألف مجلد مطبوعة، وأربعة آلاف منسوخة، ومنها خزانة بخمسة وخمسين ألف مجلد، ومنها خزانة المدينة تشتمل على نحو سبعة عشر ألف مجلد أجلها في الأدبيات، ومنها خزانة بستان النباتات، وفيها ما ينيف على العشرة آلاف، وفيها خزانة الرصد السلطانى في علم الهيئة، ومنها خزانة مكتب الحكمة، فجميع هذه الخزائن موقوفة، وهناك خزائن ملكية أخرى فمنها ما يشتمل على خمسين ألف مجلد، ومنها للدولة نحو الأربعين خزانة، فالأقل منها ثلاثة آلاف مجلد ولا حاجة في تسميتها.

من هو أحمد ولد قاضي[1]

ينتمي أولاد قاضي إلى عائلة اليهاتسيا وهم من أصول أولاد مسعود، فخذ من قبيلة أولاد بوبكر، المعروفة باسم الأمهال، المنحدرين من بني نقريش والذين قدموا إلى إفريقيا في القرن الخامس هجري. وبعد أربعة قرون استقروا فيما بعد وبصفة نهائية في وادي المينا، ضواحي معسكر بعد أن أقاموا مؤقتا بين مليانة ومستغانم حيث آثارهم تدل عليهم في قصر الأمهال. ويبدو بعد دراسة أولاد قاضي أن الشخصية البارزة لهذه الأسرة هو أولا ماريشال الميدان (ويقصد به هنا الوقوف مع فرنسا في حزبها ضد الأمير عبد القادر) صاحب وسام ڤراند كروا دي لا ليجيون دونور. Grand croix de la légion d'honneur.

الجنرال مصطفى بن اسماعيل، والباشا آغة أحمد ولد قاضي، صاحب ڤراند أوفيسيِّي دي لاليجيون دونور، وعديد من الآغوات الشجعان، حسب فرنسا، والقياد وأخيرا باشا آغة سي علي ولد قاضي، الذي نال بدوره وسام لاليجيون دونور.

1. *Bulletin de la société française*, N° 10, Mars 1885, pp. 32-39.

وأول شيوخ هذه القبيلة، الذين وقفوا مع فرنسا وكافحوا ضد إخوانهم هو البشير الذي حارب أتراك الجزائر، ووقف مع الاسبان ومات في عام 1783، ودفن بمستغانم في مقبرة باي بوشلاغم.

ترك الآغا البشير أربعة أطفال: الموفق، اسماعيل، عدة، ويوسف (البكر، المولود الأول).

تولى الموفق ولد البشير منصب ڤراند الدوائر، وقتل أثناء هجومه على الشّعامبة ڤراند.

أما اسماعيل ولد البشير، فولّى خليفة لآغا الدّوائر.

ومات في 1806، تاركا وراءه ثلاث بنين : قدور الكبير وقدور الصغير ومصطفى والمدعو مصطفى بن اسماعيل والذي يعتبر جندي قدير، لعب دورا بارزا إلى جانب الفرنسيين ضد الأمير عبد القادر ولا داعي للدخول في تفاصيل هذا الشخص الذي فضّل الصليب على الهلال، وقتل يوم 19 ماي 1843، وعمره 84 سنة.

وفي شهر جوان 1843، استدعى الجنرال Thierry قبيلتي الدواير والزّمالة لتعيين محمد بن البشير ولد قاضي محل الآغا المتوفي غير أن الحاج مزاري، رفض ذلك وتولى هو القيادة لسلطة من قبيلة فليتس، وانضم إليه محمد بن داود، وبن عودة بن اسماعيل، والحاج قدور ولد الشريف وأحمد ولد قاضي.

وبعده سيتولى سي أحمد بن محمد ولد قاضي القيادة وذلك في 11 نوفمبر 1843، انضم مع الماريشال بيجو في 31 ماي 1844، في لالاّ مغنية ليشارك في معركة مويلْحا، ضد أولاد عبيد الغنّاوي الموالين لعبد القادر.

شارك في معركة إيسلي بقيادة بيجو و Pélissier و la moriciere والعقداء يوسف وMorris، وcavaignac وGachor ومعهم الآغوات حلفاء فرنسا ضد وطنهم. ومع 14 أوت تخندق أكثر من 40 ألف من الفرسان في منطقة جرف الأخضر حيث يلْتقي وادي إسلي وشير.

عيّن آغا على صدّاما وحرّار الغرابة سنة 1848. وقُلِّد وسام chevalier de la légion d'honneur وألقى القبض على الثائر المضاد لفرنسا بل حليمة. ونظرا لثقة الفرنسيين فيه بعث الجنرال lamariciere إلى القائد الأعلى لفرندة ما يلي :

« Vous pouvez donc le laisser commander à Frenda et agir selon ce qu'il croira utile à nos intérêts. Je vous autorise à rentrer avec la colonne »

وقد ألقى القبض على زعيم قبيلة فليتس، قدور بن جلول، الذي أودع سجن معسكر، ونتيجة لذلك كرّمه الماريشال بيجو بسرج مطرَّز بالذهب، وسيف شرف شارك في الحملة العسكرية ضد الأغواط في عام 1852، تحت قيادة الجنرال Bouscarien قائد الخيالة إلى جانب الجنرال Deligny وخليفة الفرنسيين أحمد بن سالم مقدم الطريقة التيجانية ويا لها من التيجانية الدينية وبعد احتلال المدينة عاثوا في الأغواط فسادًا جميعهم الفرنسيون وأعوانهم من الجزائريين.

وفي هذه المعركة انتصر سي أحمد ولد قاضي على إخوانه في الأغواط والذين لا يملكون حتى الخناجر للدفاع عن أنفسهم.

وهنا قلَّد الجنرال Pélissier سي أحمد ولد قاضي وسامًا ووضعه على صدره افتخارًا بما قدمه لفرنسا وقتل إخوانه قائلا له :

« Voici la juste récompense de votre bravoure dont j'ai été maintes fois témoin ».

وفي السنة الموالية 1853، قام الجنرال راندو Randou بإرسال حملة "تأديب" إلى ورڤلة التي شارك فيها 10 ڤياد بما فيهم سي أحمد ولد قاضي.

وفي عام 1864، كلّف الجنرال Deligny سي أحمد ولد قاضي بقيادة حملة عسكرية ضد البيّض، أيام ثورة أولاد سيدي الشيخ.

وهنا لا يتسع المجال لذكر أعماله العدوانية ضد الأهالي لمساعدة الفرنسيين خاصة قبيلة فليتس وفرندة، لأننا لسنا بصدد دراسة خاصة بهذا الشخص وإنما أردنا التعريف به وبأعماله وبشكل مختصر.

وفي 16 مارس 1865، عين باشا آغا ومنح وسام

Grand officier de la légion d'honneur

وذلك أيام حكم الوالي العام للجزائر Mac Mahou.

وفي 1872، وبعد معركة مـڤورة (دائرة سبدو) ضد الثائرين من الأهالي، طلب الجنرال، قائد القطاع بإرسال ابنه بلحضري بن أحمد ولد قاضي لتعزيز قواته لكنه لم يكن فعالا في نظر الفرنسيين واستبدل بأخيه علي بن أحمد ولد قاضي المولود في 1854.

مات في 8 جانفي 1885، بعد مرض قصير عن عمر يناهز 78 سنة، كتبت عنه معظم الصحف الصادرة بالفرنسية في الجزائر خاصة L'Echo d'Oran وقد حضر جنازته جنرالات وضباط سامون لعمالة وهران، وممثل عن الوالي العالم للجزائر، وخُتم التأبين بكلمات :

«Si Ahmed Ould Kadi a été un des indigènes qui ont render le plus de services à la cause française en Algérie».[1]

---

1. *Livre d'Or de l'Algérie* 1830-1889, Par Narcisse Faucon, Paris 1889, pp. 499-505.

وهنا أذكِّر بالأوسمة الممنوحة له مقابل خدماته لفرنسا وولائه لها:

1.Chevalier de légion d'honneur du 17 Août 1841.

2.Officier du 22 Décembre 1852.

3.Commandeur du 18 sept. 1860.

4.Grand officier du 13 Avril 1867.

5.Assesseur musulman au conseil général du Dept. D'Oran.

تنازل أحمد ولد قاضي آغا فرندة عن المكان المسمى بـ "بورشاش" للمستوطنين، وهي قرية كانت تسمى قبل الاحتلال "بورشاش" وتخلى عنها ولد قاضي للمستوطنين ومساحتها 3500 هكتار. وأصل كلمة بورشاش جاءت من العامرية، وذلك مقابل سوى رضاهم عنه، وهذا بتاريخ 12 جانفي 1853، والسبب في ذلك كثرة مياهها وفي 22 ماي 1854 أطلق عليها اسم لوريل بورشاش "استوطن فيها في البداية 30 عائلة ومنحت كلٌّ منها ما بين 7 و8 آر. ثم بعد ذلك خصصت قطعة أرض لبناء كنيسة التي تم إنجازها في 1892 مقابل 34116.41 فرنك.

وفي 1856 أصبحت بورشاش تحمل رسميا وبتوقيع نابليون الثالث اسم Frédéric Henri Lenormand de Lourmel.

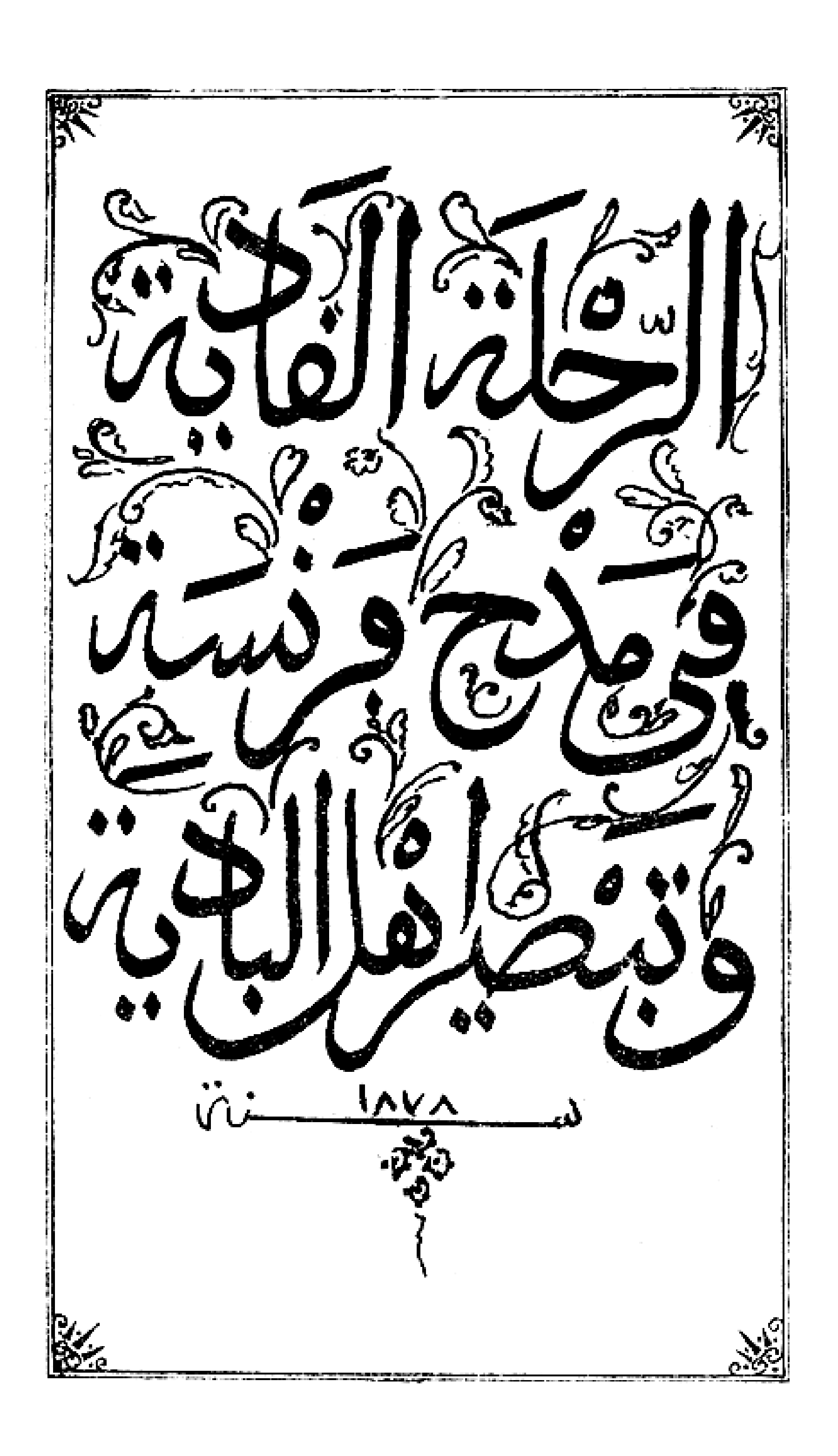
وهو من مواليد 1811، خريج المدينة العسكرية بباريس "سان سير" وصل إلى الجزائر في عام 1841 وحصل على درجة عقيد في 1849، شارك في ثورة الزعاطشة، وحملة القبائل 1850، وكان مساعدا للأمير الرئيس نابليون. مات في معركة inkermann (Crimée) 1852.[1]

د. علي تابليت

جامعة الجزائر في 28 ديسمبر 2012

---

1. *Livre d'or des officiers des affaires indigènes 1830-1930*, Alger 1930, t. 11, p. 705.


الرحلة القادرية
في مدح فرنسة
وتبصير أهل البادية
سنة ١٨٧٨

ع

والذي باره رجوت ان اكون مع من حضره وقلت
لعل غرس التمنّي يثمره وبكذا الامر يحول الله كنز الماه
وحمدت الله تعالى ذا الحمده ثم خطر ببالي بعد الرجوع
الى وطني ان اجمع نبذة اذكر فيها بعض ما عاينته
في السفر قصدا في انتفاع من لم يكن معنا حاضره
لا انا مباه بها ولا مفاخره ورتبتها على اربعة
فصول

الفصل الاول في محاسن فرنسة وملاقات اعيان
العرب مع ارباب الدولة

الفصل الثاني في عجايب مدينة باريـــس
وما يتعلق بــه

الفصل الثالث في تعداد الجيوش وتنظيمها
بفصيحة وبيان

الفصل الرابع في توديع اعيان العرب لفرنسة عند
خروجهم منها وعرض حال الولاتها

وسميتهـــا

٥

الرحلة الفادية في مدح فرنسة وتبصير أهل البادية

قلت وعلى الله توكلت

الفصل الأول في محاسن فرنسة وملاقات أعيان

العرب مع أرباب الدولة إنا ركبنا البحر من مرسى الجزائر في غرة
شعبان المطابق لشهر غشت سنة ١٨٧٨ في جماعة من أعيان
العرب قاصدين المدينة العظمى باريس التي اجتمع فيها ما افترق
في غيرها من المحسنات الحسان ووجدت ما تشتاق إليه النفس
وترغب في سماعه الذات فاستقبلنا أهلها بالبشاشة
الدالة على المودة ووجوه كغرة الصباح صبيحة وعقول
ثابتة صحيحة وصدور سالمة فسيحة فنزلنا بأحسن
المنازل الربيعة معرشة بالأفرشة البديعة ولم
يزالوا متفقدين أحوالنا توفر المراضاة لرضينا ساعة
بعد ساعة مخبرين علينا بما نحتاج إليه
بكرة وعشية موائدهم للأضياف منصوبة
وعوائدهم لكل طارق مرغوبة

وقل ما شئت فيهم من مديح تجدهم فوق ما نطق المديح
وبعد الاستراحة دعانا حضرة المرشال
ماك ماهون للحضور بتشريف منزله واكرمنا غاية
الاكرام • وحصل لنا في باريز غاية الانعام • ثم عمل
علينا بعض رؤساء الدولة واكرمونا • وفي قصورهم
المشيدة ادخلونا • فمنهما وزير الحرب سعادة
الجنرال بوربل فانه كان للضيافة في محله الرفيع
• المحتوي على شكل بديع • فيه ما يملؤ العين
نزهة ويسلي عن الاوطان كل غريب وكذالك وزير
الامور الداخلية فانه اكرمنا وفرح بنا ثم السيد
سعارن نايب وزير الاحكام الشرعية وهاكذا
الكل اخذ بايدينا واستبشر بقدومنا وحصل
لنا باعتنايهم ايانا غاية السرور وبالبعض
منهم اكرمنا بطعام والبعض انسنا بطيب
حديثه سيما ذو الاخلاق الحميدة والسيرة
السديدة فانيكا وقد تشرفنا يوما في بارتيه

٧

واستنار الحفل بمخاطبته فوجدناه حام للوطن
ساع في خير العامة له اعتناء زائد بامور
السياسة وهاكذا استمرت ايامنا كلها مواسم
واعياد **وفد** كان العرب يظنون
فرنسة عند ما لحظتها عيون السوء انتقام شانها
فلما وقفنا بها وجدناها فتية في اعين الحاسدين
وانها اجل قدرا واعظم قوة مما كانت عليه من
كثرة الجيوش والاقامة والالات الحربية كما سياتي
بيانه فحمدنا الله على ذلك واثنينا خيرا على من
ساعدنا واعاننا ووقى من غوينا في السعي سعادة
الفقيد نور جنرال **شانزي** المتدرب في امور العرب
العارف باحوالهم زمنا طويلا الذي مشى في الرعايا
على العرف الحميدة والسيرة السديدة العادل في
احكامه بين الكبير والصغير والمامور والامير
وكذا حاكم عمالتنا الوهرانية سيادة الجنرال **لييريش**
المحب الخير للرعية المجتهد في اصلاحها وكذا المعين

٨

له السير الكانرات مونيي بغير كانوا لنا سببا
في اغتنامنا هذه الفرصة لمعرفة رجال فرنسة
وواسطة في التشرف بزيارتهم والجلوس على
موائدهم فتمتعت ابصارنا بمشاهدة ما لم كنا
نعرفه وتعقلنا بما كنا نجهله وليس الخبر كالعيان
هذا ولنرجع لما كنا بصدده فكلما مررنا
بمدينة وقرية من مرسيلية الى باريس الا ورأينا على
حيطانها كتابة غليظة كقوائم الابل يستخرجها
الاعمش من بعيد فضلا عن صحيح البصر لم نعرف
حقيقتها فسألنا عنها فقيل لنا هي ثلاث كلمات
ليبرطي اقاليطي فرطرنيطي
اعني الحرية والاخوة والمساواة
فيا لها من كلمات يجوز ان تكتب بماء الذهب وياليت
الناس يعرف قدرها ويعلم ما ضمنته من المعاني
وحقيقة ان الخير مجموع فيها ان عمل بها فلما
استحسناها وتاملنا فيها ازدادت قلوبنا تعلقا

٩

بحيث الدولة الفرنسوية لما علمناه من حريتنا في
العرب ومصا واتنا مع النجباء اولاد فرنسة واركنا
لانسا وونهم في العلوم والخدمة فانا انسا ووههم
في الصدق والثبات بالاد والحمد لله قد ثبت
عند المسلمين اعتناء الفرنسويين بهم كاعتنائهم
باولادهم كيف لا وقد كان ما زرعت الدولة من
المحامد بارضهم وذبت في مصالحهم منذ استيلائها
عليهم واحيت علوما كانت لاسلافنا في القرون
الماضية ثم كادت ان تندثر ولم يبق غير الاسم
منها رغبة في لحوق المتاخر منا بالمتقدم منهما
فيحق لنا ان نحمد الله تعالى على دولة من الله
بها علينا ونحبها بواسطتها في اتخاذ
الاسباب التي نسعود بها السيرة اولاينا وبان
وفاء الله ليست محصورة في قوم ولا مختصة
بيوم دون يوم وكفى شاهدا بترتيبه
اولادنا الصغار مع اولاد الفرنسويين في المدارس

١٠

التي هي مبادي الارتقاء والحيوة الطيبة
العزيزة على البقاء وبانعرفت المصالح في جور
بعضهم كما انعرفت دماء اولادنا الكبار مع
اولادهم في مبادي الحرب بارض الجزاير والبلاد
الاجنبية غيرها وانه على العلم بانه والله
احسن غنيمة وارفع من كل شيء وقيمة
وقد كان الحرب في العادة عند فتح باب
كل مهم بسنة وترتيب الدولة ايامهم لهذه المكرمة
تنكروا من ذالك كنا منهم انه معسرة لم ينفعهم
حتى قال بعضهم الغالب انفسنا ونساءنا واولادنا
في البحر اهون علينا من تبديل دينا ووافقنا
مع اولادنا ولسياسة الدولة جعلت لهم
مدارس عند ابواب ديارهم كي لا تعرفهم عن امهاتهم
ومع تحريضنا لهم ونصيحتنا اياهم اذ خلنا
بعقولهم ما ينتج للتلاميذ من ثمرة التعليم وقلنا
لهم انه لا يستوي الاعمى والبصير والابكم والناطق

11

ام هل يستوي الاعرج والصحيح السابق ولم نزل
نحافظهم على قدر عقولهم حتى طابت انفسهم
وشرع البعض من ابناء الخيم الكبرى في ارسال
اولاده للمدارس فاستنا نسوا شيئا فشيئا ه
والان لما اقبل وقتنا اكتسب فيه ابناؤهم
المناصب الشرعية والمخزنية كل منهم على قدر
تحصيله للعلوم وتفوق عقله حمدوا الله واثنوا
علينا خيرا في نصيحتنا لهم وشكروا الدولة شكرا
مؤبدا ه وبعدما قرب ياتي زمنا يمتزج فيه
العرب مع الفرنسويين ويصيرون كذات واحدة
يجتمعون مع بعضهم الكل فيما هم عليه الا عيشة
مرضية ه وليس للعرب مانع عنهم ونقص
منه انفسهم غير امر الديانة لان علماءهم وهلم
يقولون المصيبة في المال ولا في الاولاد وفي الاولاد ولا
في الابدان وفي الابدان ولا في الاديان ه وفي
الحقيقة شرط الديانة هو ان الانسان يجب

لنفسه ما يحب لغيره ويكره لنفسه ما يكره لغيره
فإذا كان على هذه الصفة وصفا قلبه من أذى دين
كان فهو من خيار قومه وإنما الأديان كلها والأعمال
زاد المسافر فيها ولكل إنسان يحصد ما زرع ويدخر لآخرته
ما جمع لأن الناس معادن أفضل العباد من اهتم بمصلحة
العامة وسعى في خيرها فهو كالشجرة المثمرة لا ينبغي
أحد زوالها وربما حتى الآلة الحديدية لا تمسها احتراما
لها وأما شرار الناس من اختص بمنفعة نفسه ولا يبالي
بمضرة غيره ومثل هذا لا يلتفت إليه عاقل
الخلق عيال الله أحبهم إليه أنفعهم لعياله

الفصل الثاني في عجايب معرض باريس وما يتعلق به

ولما دخلنا دار المعرض الكاين بالمحل المسمى
شان دو مارس المجتمع فيه غرايب الصناعات الفايقة
والاختراعات البديعة الرايقة فوجدناه أمر عجيب
يحتوي على أصناف نتايج الفهم ونتايج الزرع والمعادن
والتحف كل شيء منها على حدة موضوع بالإتقان

والتحكليم وكل شيء يستخرج بالالات والحركات العقلية
فترى الصوف مثلا في محل محملها تخرج خيوطا ثم يصير
ملفا جيدا ومتوسطا وادنى فتغزل اين المشط
واين المغزل واين المنسج واين الخلالة والشيء المتناول
باليد وترى انواع الامتعة من حرير وكتان بانواع —
التطريز الغريب المذهب الملون واصناف الحاشية
العريضة والضيقة تخرج كثيرة بادنى كلفة واعمال يد
واما المعادن فترى قطع الحديد بدارات العمل
مكومة في جهة وترى الفاس والشاقور والمقص والمنجل
والمحراث والمنشار ونحو ذلك مما لا يحصى تخرج من جهة
اخرى مكمول الصناعة وكذلك الذهب والفضة
والنحاس والرصاص والقزدير والرخام والبلور والزجاج
فترى مثلا الذهب في محله حجرا ملوثا بالتراب موضوع
في جهة وترى من الجهة الاخرى السوايع والسلاسل
على اختلاف انواعها واصناف حلي النساء كالسوار
والخاتم ونحو ذلك حتى السكة من اللوين الكبير والصغير

فتراه يخرج من المطبعة في الغفلة واحد بعد واحد
وتارة على تارة ينطبع بلونين ويسقط في جهة أخرى ثم انه
ثم يكمل في المطبعة ويرد للمحل الأول ليبدو ويخرج مرة
ثانية كاملا موزونا فيقول الانسان أين النار وأين
الرابوز وأين البوط وكيف تنسج هذه الأشياء وتصنع
دون رؤية المعلم والمتعلم والصانع وترى في معمل
الرخام المرمر قطع غير منحوتة ولا منجورة ثم ترى الصور
الغريبة والسواري المنقوشة وخاصات الماء الرفيعة
وهكذا كل شيء يخرج بواسطة الآلات والحركات
العقلية حتى القمح يوضع حبا في جهة ويصير دقيق
مغربل صافي بالحركة في جهة ثم يخرج خبزا ويتهيأ كله
للعسكر في جهة وهذا في أسرع وقت والانسان واقف
وأغرب من هذا أن النار والماء ضدان والضدان
لا يجتمعان وقد رأينا الثلج يستخرج من نار وماء بالآلات
والحركات العقلية فلو سمعنا بهذا لما صدقه
العقل لأن ليس الخبر كالعيان فوقفنا بأعيننا

وقلت لنفسي اعتبر يا احمد بن قاضي واخبر من يعتبر
وكمـا راينا الماء المكدر بالة وصار خـ
لا تشربه البهايم فضلا عن الادمي تجعل في السج
ويخرج كالجبين صافي وكذلك الماء المالح
ايصير بالمعالجة حلوا وهناك محل مسقف
بالبلور الغليظة فمن الناس من يمشي بداخله
والاخرون فوقهم كانهم في ويمشون على
رؤوسهم وفيه وادي بينه وبين المتفرجين
حاجز من بلور ترى فيه انواع السمك التي في
البحر لامتزاج المياه المالحة والعذبة فيه
بالصناعة الغريبة التي لا سبيل لوصفها
فترى الغرنيق وام الجنيبة والمرينة وانواع
السمك هذا ياكل في هذا وهذا يفر من هذا
فمن لم يعلم ما في قعر البحر يكفيه رؤيته الله
ومـمـا يستغرب ايضا محل المحترف فيه
مشيد في جو السماء وفيه كوة مغروسة

١٦

وسعتها نحو العشر ميترات فجلبوا شكرا من
الوادي العظيم الآتي وصعد واد خلوه في الفم
ما عرا بالآلة في الهوى ثم يتدفق من تلك
الكوة تدفيقا هايلا يغلب بقوته السفينة
ويكور به تحته الدار المتينة والناس
يمشون من اسفل مع جدار الفم خلف الماء
فيصيبهم بلل ضعيف من اهل التخريف لتقويس
الماء على حسب الكوة كما اشرنا فتجتمع
المياه في بركة كبيرة كالضاية ثم تفترق جداول
مختلفة في ارض احدقت بها البساتين
الوارفة الظلال العزيزة المثال فترى الخضرة
في خلال تلك الغصون المبيضة كثياب سندس
خضر على اثواب من فضة فجملتها يدخل
على القلب السرور وينذهل العقل كانه من
النشوة مخمور فيقول الانسان هذا منام ام
يقظة اوهو في الدنيا ام نوع من الجنة

١٧

ومن المستغربات ايضا اننا راينا صورة
هامة انسان من نحاس اكبر من القبة الشاهقة
تجلس جماعة في احدى ثقبتي منخريه فقلنا
اهذا هو الغول المخوف به الصبيان ام هامة
عوج ابن عناق ولسبب وضع
هذا الراس الهايل المنظر في محل المعرض هو ان
بارض الجمهورية الامريكانية واديين عظيمين
يلتقيان في البحر تسير بهما المراكب من بلد الى
بلد وهناك مواضع مخوفة يتكدس فيها
الرمل فيخشى تحطيم المراكب فيها ولما
بين الدولة الفرنسوية والامريكية محبة قديمة
اهدت لها صورة انسان من نحاس رجليه
في الثرى وراسه في الثريا بداخله ادراج
كالصومعة وعلى راسه نجمة وتلك النجمة
منارة مستضيئة تهدي المراكب على المجاز وكانت
بعثت لها قطعة بعد قطعة وفي ايعرية والجو

١٨

وحين وابقت الساعة في محل المعرض ما دامت
مبقتها من جملة العجايب ثم يلحق بذاته وركب
بالمعاصل ديركن في ملتقى الوادين بارض امريكة
كما وصفناه ومن جملة ما رايناه من ادنى
الغرايب استخراج افراخ الطيور من غير تحضين
فتراهم يجلبون انواع البيض من كل بلد ويعالج
بالحرارة المناسبة في معاناته حتى يخرج افراخا
زاغدة طالبة للمعاشرة وكما رايناه
اصناف الخيل من الغصير كالكبش الى الفخم
كالفيل وكذا انواع الكلاب من قدر الهرة الى
السبع البعض بشعر طويل والبعض كالمنزوعة
لحم في جلده وكذا انواع الطيور من العصفور
الصغير قدرا البراش الى النسر ومما
يستغرب في التصاوير من رخام وشمع بدار الموسكو
جعلوا محلا فيه جماعة من الناس كلها تصاوير
البعض متكيا والبعض قايما والبعض يتكلم مع

صاحبه سراكانهم في شغلهم وهنالك طيور
من باخة وبلبل ومغنين وشحرور واشكال
عربية حتى الباباغا في قفص كبير كل واحد
يخرج بصوته المعلوم وينفض جناحيه
ويلتفت يمينا وشمالا والحالة انها ميتة مكونة
وبالحركات العقلية تستمكن وهي رافعة
فوق اغصانها جناحها محركة وفما فمها
مفتوحة وكما ان الاصبانيول احضر
في محل الحضر انواع الة لا يعملها الا فرنسيس
من زمر الاندلس كالزرد والبيضة ونحو ذلك
وجعل قصرا مشيدا يظهر للراى زجاج
ملون واذا دخل وجد سواريه وابوابه
وحيطانه مغطاة بانواع الشراب في ظروف
من انواع الزجاج مركب في غاية الاتقان
متعة للنظر وكما ان الملك ابر ملكة
الانقليز اهدى له من البهجة انواع السلاح

الغريب من سيوف مجوهرة وخناجر مرصعة
بحجر الماس وبنادق طويلة وقصيرة ورماح
وما اشبه ذلك الى شيء غريب وضع في محل
عظيم للتفرج والنزهة هو واعظم
واجل واعلا قدرا وشانا من هذا كله ياقوتة
الملك اليتيمة التي لا تقوم بمال المعروفة
في تواريخ العجم بالرجان وتاج السلطنة
المنظم باليواقيت الفاخرة والدرر النفيسة
موضوع بمحل واي محل يجول بينه وبين
المتفرج حين نهارا حاجز من بلور فاذا جن
الليل تفتح كوة في الارض بالحركة وتسقط
الياقوتة فيها كالكوكب المستضاء بين
الكواكب ويغلق عليها بحجرة وبالجملة
هذا شيء غريب لا سبيل لحصره وانما اختصرنا
بعضه ليعتبر العاقل ما يتوصل اليه الانس
بنور العقل واي مما هو الا كما قالت الاخماس

٣١

هذا حمل لا يكاد على حمله غير انه يا اسعا
مع الملا عنا على تلك العجايب التي يعجز
الانسان على وصفها لم ندرك حقيقة
الكثير منها ولنرجع الى وصف واد
باريس وان هذا المحل الغريب يشقها حرا ودية
العظام في الدنيا المسمى لاسير فيلهو
المعروف بجيجون فنهرته المعتادة تسع
مرور اربع عربات محاذية لبعضها ولما ان
وقت افتتاح المعرض جعلوا فوق القنطرة
سطحا من الحديد والاخشاب المتينة ممتدة
من الجانب الى الجانب في غاية التحكيم والصحة
وصارت تسع مرور عشرين عربة تحمل مائة نفس
دفعة واحدة بيتوتهم لا نسا انه سايم
في بلاد وذالك خلاف مرلمهتت القنطرة في المراكب
البخارية المسماة عندهم موش اعني ذباب
الواد الواحد منها يحمل خمسماية نسمة كانها

٢٢

بلد يسبح على وجه الماء فبمنزلة ذاهب وهذا
راجع وترى الناس تموج في محل المعرض كموج
البحر مترددة اليه افواجا افواجا فيقال
ان عدد الداخلين اليه الوارد من اطراف
الدنيا يبلغ كل يوم نحو المائة الف فيتخيل
لمن راى تلك الملايين من الخلق على البعد انها
كرون نمل او جراد مارد فوق متحيرة مرفوع
لما بينها من التباين في اللغة والشكل والطبع
واللباس ومن اطلع على كتب التواريخ شبهه
ذلك الجم الغفير بمدينة بابل التي اجتمعت
فيها ساير اللغات فتراهم يتبادرون للمسالمة
والمكالمة والمصالحة ويرغبون بعضهم بعضا
للحضور على موائد الطعام كانهم اخوان من بطن
واحد او وطن متحد فجزى الله الدولة
الفرنسوية عن العباد خيرا لانها الواسطة لهذه
الفضيلة وحيوة كل ارض حلت بها كانها ماء

امطارا وبيلة ❊ **ومما** يستغرب انه مع اختلاف
هذه الاقوام والملايين من الخلق لا يسمع لهم
دوي ولا غوغاء، بيمن ثمرة الثلاث كلمات
الحرية ❊ والاخوة ❊ والمساواة ❊ **وكما**
ان هذا المعرض المبارك ينبئنا بلسان الحال
عن من الراحة والخوض في ازدياد التجارة ——
والفلاحة وارتقاء العرب لدرجة التمدن
والرفاهية والتعليم بفضل الله الكريم

فللنجم من بعد الرجوع استقامة
وللبدر من بعد المغيب طلوع

هنيئا هنيئا الفرنسة التي هي ام الجزائر
يزيدها مر الليالي جدة وتقادم الايام
حسن شباب ❊

ومن جملة ما يجب شكره ولا ينقطع ذكره
هو ان احد ابناء الخيمة الكبرى من الدواير يسمى
اسماعيل بن المنور الذي امضى زمنا طويلا

٢٤

في خدمة الدولة ونال الحسن سيرته جزاء الخدمة
كان توجه الى حمام فيشي بفرنسة لعلاج مرضه
فادركته المنية هنالك مع مولانا فوجدنا
اهل تلك المدينة في غاية الوقوف معه فمن
ذالك جعلوا البعض منهم واقفين للتعزية
منكسين الرؤوس ومنهم من الحزن باكيين العيون
كانهم من اوليائه والبعض يثني عليهم وهم
في غاية التاسف اكثر منا ثم جعلوا له تابوتا
وشيعوه في التوجه الى وهران بغاية التعظيم
والاعتناء الكامل و في يوم من ايام سفرنا
التي مرت علينا كلمح البصر صادفنا وقتا
لزيارة قبر المرحوم الجنرال موريسيير الملقب
عند العرب بوهراوة فراينا صورة من نحاس
مضطجعة على قطعة من رخام مستطيلة
وعلى الاربعة اركان منها صور مستغربة
فلما دنونا منه عرفنا ذاته كانه نايم فسلمنا

٢٥

عليه واحترمناه احترام الحي وقد
تذكرنا الايام الماضية معه ومع المرحوم
الجنرال مصطفى بن اسماعيل وقوم الدواير
معتبرين الزمن القديم واهله وقلنا له
تأسفا على سبيل التمني آه على الدنيا
ليتك تعود اليها كي تزجر دهرا وتك من
استوجب الزجر فرحم الله قوما أسسوا
الخير والعافية في البلاد واطال عمر
سادات اليوم الساعين في تكميل الغرض
والمراد بجنده

الفصل الثالث في نشر الجيوش

وفي يوم الاحد الخامس عشر من سبتمبر
تشرف البعض من اعيان العرب بالحضور
في نشر العساكر وتم ترتيبها وتنظيمها
على هيئة القتال شيء غريب وكان ذا السلطـ

٢٦ .

بفسحة في غاية الاتساع قرب باريس تسمى
فانسان معدة لتمرين جنود العجمية في وقت
الرمي بالمدفع فلعمري تمتعت نواظرنا
وانشرحت خواطرنا ورقصت افكارنا طربا
واخذنا منه المنظر الحسن عُجبا وعَجبا
وبالله من يوم مشهور يبلغ خبره الحاضر
للغائب ويسير بذكره في المشارق والمغارب
يبقى حديثه على مر الايام تُرويه اقوام بعد
اقوام مجانزى غير بوارق السيوف الساطعة
في دياجي الغبار وسوابق الخيول التي لا تجد
الحد ومنعطابرار والصفوف الهائلة
الرؤية الشريعة الوكْناة التي لا يدخل
فيها اختلال ولا يطمع في تفريق كلمتها
عدو مختال ونسخة الجيش الذي
رأيناه يشتمل على نحو الخمسين الفا ما بين
المشاة على اختلاف اصنافها والخيالة

على انواعها والقبجية بعد اوجما ماعري
كما يعة الجيني واصحاب الاثقال والوكلاء
المتصرفين في انواع المئونات المعبر عنهم
بالليكبانة انت وفيه رأينا الاسبيتال
محمول فوق كراريس ستينة مظللة بالاحمر
والابيض مميزة بصليب وراية ايضا بالصليب
علامة بين الاجناس في القتال على احترام
المرضى والمجاريح واجتناب مضرتهم ❁

تنبيه اذ ما شهرناه من الجيوش
في ذالك اليوم فما هو الا جزء واحد من تسعة
عشر جزء مثله كل جزء يسمى **كوردارمي**
المعبر عنه بالحرف يتامر عليه دي فيزيونيس
مشاة ودي فيزيون خيالة وما يتبع ذالك كما
ذكرنا فمنه ان بر الجزاير تحت امارة
سعادة القبير نور جنرال الشانزي جزء واحد
اعني كوردارمي وقس على هذا مما يكون

شرحه تعلم ما هي عليه فرنسة من القوة
والقامة ما لم تكنا نعلمه وهذا خلاف الرديء
والبلدية وقد كان المقام على تلك
الجيوش التي هي جند واحد كلها وصنائع ذلك
اليوم المحفل المشهور الذي هو في السنة
العربية منذ كور سعادة الجنرال دوليني
فبينما كانت صفوف العساكر مرتبة
مسكنة ومحل المتفرجين غاص بالناس اذ قبل
حضرة المرشال ماكماهون في ابهة وجحفل
بهي كالبدر بين الكواكب راكبا على حصان
من عتاق الخيل مذهب تلوح عليه سيمة الملاحة
كيف لا والخيل اسرة الملوك وانما اشرف
الحيوانات بغرر كان نبينا صلى الله عليه وسلم
وضع يده الكريمة على ظهر فرس وقال ظهرها
عز وبطنها كنز وكان يمسح وجه فرسه بكم
ردائه لمحبته لها ولهذا ان العرب لا تعرف

برئيس القوم ان كان راجلا ولو يبلغ ما يبلغ
في الغدر ولما ومن اعزه الله الى الصف
الاول من الجيش من فى كل الشهم والموكب
في اثره وكانت شرذمة من الاصبايحية يقودها
ليوتنان امامه ولم يزل الكفا الى ان احاط
بجميع الجيوش وتخلل بهم محل النزاهة ووقف
وقفة ضيغم وولى الموكب على جهته والصبايحية
في منتهاه، وفيه كان سعادة المرشال
كانروبير محاذيا له وكثير الجنراليات كالجنرال
دابزاك والجنرال بوا وامثالهما والكلونيل
روبير واقرانه على حسب المراتب كالاسود
الضارية وبالجانب الاخر امير ملك
روسيا ورؤساء الدول وسفرائهم كالنقلتير
والانقليز والطاليان والاصبانيول والبروس
وغيرهم كل منهم مميز عن غيره بزي لباسه
كانهم روض مختلف الازهار تزهي رؤيته الابصار

٣٠

ولسان الحال يقول ﴿

فيا قبل وقت السعود بطلعة الفخر على الوجود

هنا وسعادة وزير الحرب بوريك

كان مقابلا له في محفل ايضا من حزب القماجور

بنعت الخلائق وتطاولت لها اعناق من فرحة

بلسان واحد على لها تزبان ادام الله وجود

ماكماهون ادام الله وجود الجمهورية

الفرنساوية ثم شرعت العساكر

في المرور سير المجعلين تمر السحاب في غاية

التنظيم والتحكيم الحرب والخيالة فرا طلعت

لها عنة كالسيل الغزير دوجة واحدة

ثم وقعت مقطعة وقعة وفارس واحد كبنيان

مرصوص ولما انكشف الغبار ظهرت كبكبة

الفيجية بعد اجهاتها لزال الجبال وكراريس

بخيل كانها فيال وحين انتهى التسراح ووقع

كل منهم في محله تقدم رئيس الجيوش المشا

اليه امام حضرة المرشال ماكماهون
واهدى له سلاما خاصا واجيب بالثناء
جزاء لحسن تدبيره في الحروب وتدريبه في شن
الغارة وجنده الدلويت نواصي الخيل وولت
الى اماكنها رويدا رويدا ثم اجتمعا المجلسين
وانصرفا وقد اخذ كل واحد منا في ذلك اليوم
حظا وافرا من السرور وفي الغد الذي
هو يوم الاثنين عشية دعانا حضرة المرشال
ماكماهون لوليمة اعدها الكبراء جيوش
فرنسة ورؤساء الاجناس الاجنبية وكانت
ليلة مشهورة قلما ياتي الزمان بمثلها يعجز
الواصف عن وصفها اجتمع بها من رتبة
العسكرية الى الجنرالية على اختلاف
انواعها بتزي ملابسهم المطروزة بالذهب
في الضياء كالنجوم تلتهب وتارة على تارة
يطلق نور مشعشع بالوان مختلفة

وترى الأرض ومن عليها حمراء وتارة زرقاء
بهجة للناظرين وبهذه الليلة المفتخرة على
سائر الليالي كان انتهاء نزهتنا بباريس

الفصل الرابع في توديع العرب لفرنسة وعرضها الانشا

هذا ولما أزفت الرحيل جرعنا كأس
الفراق بعد حلاوة التلاقي ولم يمينا

يوم خروجنا من وطننا مثل ما اصابنا يوم الخروج
من تونسة فانصرفنا والعيون ملتفتة اليها
وشعرنا والقلب مقيم بها لاكن صبرنا بالامان
انفسنا وقلنا لاهل الفضاء ايضا مجمعنا ثم قلنا
توديعا من صميم الفؤاد سلام عليكم يا اهل
الود والوداد وسألنا الله تعالى ان يبقي
وجود سادات تونسة واوتادها الذين نظموا
الامور ودبروا الجمهورية وثبتوا الاساس
ونشروا العدل بين الناس بسعادة امان
ديارنا ومشيد بنيانا حضرة المرشال
ماكماهون لا زال السعد له خادما والعز
بابوابه ملازما والرعايا باسطة اليه الكف
والاعداء لابسة منه ثياب الخوف بشر
وفي هذا القدر للمعتبر كفاية انه ليس لما وصفنا
حد ولا نهاية وان ما شاهدته العيان لا يحيط
به قلم ولا لسان

٣٤

عرض حال

المرجو حسن التفاتة نحو العرب من رجال
الدولة واوتاد هذا الخير ارتبطنا معهم زمنا
طويلا بسلسلتين متينتين وهما اختلاط
الدم ما دي موا طن الحروب وتلك عقدة ثابتة
واختلاف الايادي على الطعام وذ الطعما يكون
بين الغرباء والعشيرة بحر انها كعيال واحد
الحي منا مع الحي منكم والاموات مع بعضها
بمرد الذي يعرف العظام المختلطة في مقابر
القتلاء بالمكسيك والايطاليا والبروس وب
الجزاير الا انه تعلق بنا المامول من السادات
ان لا ينسونا في رفع المضرة علينا بلنا حق
عليهم ان لا يتركوا امة مشهورة اودعها الله
امانة بايديهم في زوايا الاهمال ولهم حق علينا
في الطاعة واتباع الاوامر على كل حال هـ وان ـ

٣٥

ما يحل بالعرب من انقلاب اموالهم وذهاب
عقولهم مما هو الا من غشامتهم وجهلهم
بالامور الشرعية والقوانين المحكمة مع انهم
يخافون من الحكم ويتبعون الاوامر نعم بالشريعة
الفرنسوية وان كان في نفسها خالية من الاغراض
فلجهلهم بامورها يصعب عليهم الوصول اليها
والتوصل لحقوقهم لديها ه

اولا توسع السماسرة واليهود بالدراهم
المتجاوزة الحد

ثانيا تضييع الوقت بالبطالة والترداد الى آجال
والبطالة وترك الاشغال

ثالثا مصاريف الطريق البعيدة

رابعا عدم المعرفة بامور الشريعة وهذا
مما يضيع حقوقهم ه فلو كان لهم معرفة بطريق
الشريعة الفرنسوية لسلكوها امنين وما
الطريق من حيث هي كالحية من عرفها قتلها

ومن لم يعرفهما فتلته فان قلت ولماذا
اهمل السؤال عن القرينو ولم يتخذ خبيرا لهما
فاقول ان سائر عرب مثله بعيدا اجهل منه
وما اراهما الا اعمى يقود اعمى كلاهما في حفرة
وان وقع في شبكة السماسرة واليهود الذين
يوصلونه ويدلونه على القرينو فهم ون لسمه
النصيحة في زي عدوته لا كونين كونه في قميص
قبل الوقوف لدى الشريعة فلا ينجي من احدى
السخطتين

ومما ينبئ عن تغفل العرب وجهلهم
بالامور ان احد العرب عليه مال في ذمته
ليهودي وكان اليهودي يجسر اليه ويكرمه
ويدخله لبيته ويحميه ويطعمه بالحلاوة
والماكل التي ما راها في عمره فلما قرب
اجل الدفع بعث للعربي ورقة يدعيه للحضور
امام الشريعة بدفع العربي الورقة التي

٣٧

جاءته وذهب بها الى صاحبه اليهودي
فاعتذر له كما لنا منه المعاملة كنا منه كثيرتنا
في تجريده الآجال فنخون عليه اليهودي الأمر وقال
له ارجع ليلا دلالا تجي فإن حضوره يكفي عليك
ثم لما نودي على اليهودي اجاب قائما والعربي
في بيته غافل في غفلته فحكمت عليه الشريعة
حكم الغائب (جوجمنت د يفول) ومع هذا
لم يعرف كيفية الاعادة ولا المدة المعينة لها
الى ان جرى عليه حكم البت وبيعت بلاده غبنا
ومثل هذا كثير الوقوع بالعرب فلو كان لهم علم
بالطريق لما ضلوا به
فهذا نادرة لطيفة في ان احد العرب كان امره
الحكم بالحضور على الساعة الثانية بعد
الزوال فصار مشتغلا بارصاد الوقت لئلا
يفوته سائلا عن الساعة كل من يلقاه فجعل
نفيسة اذا به سمع طنين الناقوس في الكنيسة

تخيّل له ضرب الساعة فجعل يعدّ في اصبعه
وهو يهرول ويتكلم وحده كالمعتوه قائلا
(واخلا خيمتي الحكام قالوا لي على الزوج وهاهي
(ضربت اربعة وعشرين ضربة (
فكل من يسمع كلامه يحسبه اختل عقله
وهو جُرّ يستغيث ولا يغاث ويكبيط
البعض منهم يدخل الى دار الابوقاط بالواسطة
كما ذكرنا ليتكلم في حجته فاذا خرج الى البيت يلتمس
ادراج السطح فيصعد منها عوضا عن ان ينحدر
من حيث دخل وهذا غلط فادح وغشامة
وحشية حتى جرى بالألسنة لفظة (بيسطي
في حق العرب فالراي يتوجه هذا الغشيم
المسكين واي باب يطرقه . **تنبيه**
اعلم ان بر الجزاير يشتمل على نحو الثلاثة ملايين
وزيادة فعلى تقدير النصف بالغ الى درجة التمدن
والنصف مثلا حضري فاثرع مغتربا ول فانا ترى

اليوم الحي كلما شاهد جاره الافرنجي يحصل
من عمله في الحراثة والغراسة ونحوه الذي ما هو
ابلغ منه مع ان التراب كالتراب يلزم نفسه
بالحرمة مثله في اتخاذ الحراث الافرنجي والآلات
المتقنة وهاكذا لكل شيء دليل وانا نراهم اليوم
في زيادة الاتقان وعن قبول العوائد المتحصلة لهم
منه وكذا نراهم مقتصرين في حراثتهم على زراعة القمح
والشعير قليل العول والحمص لا غير ثم تمادوا الى
غراسة القطن والكتان والبطاطة ونحوه الذ
ي وكنا نرى من قبل جز الغنم بالمجزة العربية
فيأخذ الشاة التي تكتب للجز فبالذبح لها
اهون لتعذيبها وتمزيق جلدها والآن استعمال
جز غنم الكثير منهم بالمقص وهاكذا في كل شيء
والآن بعد مضي اعوام قليلة يبلغون لدرجة
التمدن كما هو المتمنى لكن ينبغي السياسة
لصعوبة تبديل العوائد ولا يخفى

على عاقل محصولات بالجزاير من قمح وشعير وصوف
وزيت وبقر وغنم وغلل وارزاق مما يحمل منهما
في كل سنة شي كثير وهذا الكتاب اذا اعتبرتم
الماضي والحال والمستقبل واطلعتم على
الدولات المعظمة تنبئكم عن حال العرب
كيف كان قبل دخولهم في الحكم العمومي وكيف
هو الان تعلموا خيرهم وشرهم بالزيادة
والنقص في مجالسهم فاذا كان هذا فلا ينبغي
للعرب الذين تحصل منهم العوايد الجزيلة
الكثير من غيرهم ان يتاخروا ويتركون في زوايا
الاهمال وان كان لم يبلغ الكل الدرجة التمدن
فلا لتعبات الدولة الكثيرة حق واجب فلا فيستحق
ارتقاء العرب في التعليم وقد نشا منه الكثير قابلية
اولادهم في المدارس بالمدة القليلة لاكن لا يستفاد
امرهم وتصلح احوالهم بينما يبلغون هذه
المرتبة الخيرية كان يحتاج باتخاذ رجال من

٤١

كل عمالة يكون منهم فيسمى نائب عنهم
في ديوان المشورة كنواب الفلاحين
الأوروباويين فيرفع عنهم المضار المتـ
المتسلطة عليهم من جملتهم كما أشرنا
ويتكلم في مصالحهم لأن كل أحد له خبرة بجنسه
حتى إذا لم تبق منه فائدة يصرف بعد انتهاء
المدة المعينة بالتي هي أحسن ويسمى
غيره أما الدولة لها النظر فيما
يعرض عليها من النواب إن شاءت تبطله
أو تبقيه والعرب يستريحون وتطمئن
أنفسهم فيصرفون همتهم إلى الجد في إتقان
أعمالهم وتتسع الرعية وتكثر المجابي
ويسهل خلاص مهام وعلى هذا المنوال فيستحق
للدولة الفرنسوية مشاركة أمة العرب في الأمور
كالأوروباويين وتجعل لها طريقا للدخول معها
في دواوين المشورة ولا ينظر فيهم أنهم ينكرون

٤٣

معاشرة الافرنج ويكرهون حدوث الغربة في وسط
بلادهم المتسعة بل عندهم سرور لمخالفتهم
لوجود شئ منها ووجود ما يحتاج اليه
العرب عندهم ومنها الاقتداء باعمالهم
المتقنة في خدمة الارض كما اشرنا ومنها
اجراء المعاملات بينهم بالمرافقات والنصيحة
الخيرية لبعضهم بعضا فهم في نعمة شاملة
وخير كامل هذا ما يتحدى على الاخ بخيانة
او خسارة حتى لو قيل للعرب الذين كانت
عشرتهم مع الافرنج باركة انهم يرغبون فراقهم
وهم يحلون من وسطهم لما رضوا بذلك لحسن
المعاشرة بينهم وتلك النعمة لا تكر اليوم حل
بالعرب مضرات يشكون منها عند حدوث
الكميسيون المتفق على شراء بلادهم لحدوث
الغربة وبلا حتى الاوروباويين
اولا تقويم البلاد بالثمن البخس

٤٣

ثانيا الوعد الطايل بتنجيز الثمن المشتراة بدلا رض

ثالثا تضييق العرب باتخاذ الكثير من ارضهم دون تاويل ولا مبالات بهم

رابعا التزام العرب كراء البلاد الزايدة عن ما يحتاج اليه الكولون بثمن ابلغ من قيمة الشراء لتضييقهم اما العرب يقولون هذا غير الغبن ونوع من الجبر والكولون يقولون هذا شراء بالمراضات وفي الحقيقة اين المراضات في ذالك وهم لا يحضرون للبيع ولا يعلمون بما اتفقت عليه الجماعة المعينة لاتخاذ الاراضي حتى يقال لهم بلادكم احتوى عليها البايلك ومن المعلوم ان لفظة المراضات تطلق على رضاء الجانبين بحيث ان الشاري يقصد البايع مثلا ويشتري منه بالقيمة

المتفق عليها معًا من اشتراط المرافات
والا فما هو الا غير صحيح نعم ومن الناس
من هو ضعيف لا يملك غير شيء قليل من الارض
فيه رمق معيشة عياله فيبغي بيعه خارج الجملة
وتنزع بلاده من يديه فيصبح عاريا من
الحراثة التي هي حرفته ابا عن جد فيصير
ميتا لم يغير هذا مما يؤدي الى خراب
العرب وهرجهم فلو اطلعتم ايها السادات
على القرى التي حرثت بارطاج وسط
العرب بالتنا ويل الذي لا مضرة فيه للعرب
ولا للافرنج واطلعتم على ما هو حادث
الان لتحقق عندكم صدق كلامنا وعلمتم
ما الفرق بين من اراد حيازة الدار كلها
وكره رب المكان منها وبين من اخذ مسكنا
فيه رالمستقر واحسن المجاورة ولنبين
ما ذكرنا والغيناه على مسامعكم الشريفة

نهوكنه ب واقتراء اتخذناه مرر وسنـــا
او سمحناه بالاخر بل شهدناه حيا نــا
كمشاهدتنا الفرنسة وعجايبها وتغمر على
تبيينه ان شيتم . اقـــل ذلك
مصالح العرب الذين عددهم يشتمل على نحو
الثلاثة ملايين تستحق النظر اكثر مـــن
مصالح الاروبا وبين الذين عددهم يشتمل
على نحو الماتيا وعشرون الفا وباي
وجه يحرم التماس النواب منهم ــــــ
للا ستيلشا ر محهم في المصالح العمومية
ان كانوا في رغبة الاخوة والمساوات
كما هو الزعم .
هذا ما نعرضه على ساداتـ
فرنسة وجمهوريتها المسئولون

٤٦

مراتبه عن غيتها امالة

والمرجو منهم التاملي جميع

ما اشرنا به عليهم وبالشريعة

تسمح مرادنين والحواش

ان يتبع في هذا الغرر كفاية

لمن وعى وسمع

وبالله سبحانه التوفيق

اهـ

من هو سي محمد بن الحسن بن الشيخ الإسلام

سيدي الحاج محمد الفقون ؟ [1]

من مواليد 1867 بقسنطينة، حفظ القرآن الكريم في زاوية أسرته بعدما واصل تعليمه في قراءة كتب المؤلفين الكبار، وفي نفس الوقت تعلم وأجاد اللغة الفرنسية.

اهتم في شبابه بتسيير وإدارة شؤون عائلته خاصة إذا علمنا أنها عائلة كبيرة العدد.وفي عام 1899 طلبت منه الإدارة المحلية أن يقبل بوظيفة نائب (أهلي) لبلدية قسنطينة وقام بالمهمة على أحسن ما يرام. أثبت كفاءته وولاءه لفرنسا.

أصبح عضوا في كل اللجان البلدية، عين مستشارا عاما. ثم مندوبا ماليا، عضو في المجلس الأعلى للجزائر، عضو في الغرفتين الفلاحية والصناعية. وشارك في تهدئة الحملة المعادية لليهود في نهاية القرن 19، وأعاد الهدوء والأمن للمنطقة. قام بأعمال تجارية ونجح فيها. كما أنه بذل قصارى جهده في تطوير الفلاحة وأثبت ذلك بكفاءته في الميدان الفلاحي.

---

1. نقلا عن :
Marthe et Edmond Gouvion, Kitab Aâyane el-Maghariba, imprimerie orientale Fontane, Alger 1920, pp. 102-103

دعّم القضايا المطروحة من قبل الحكومة العامة عن طريق المجلس العام، والمندوبيات المالية، والمجلس الأعلى. ولم يتفانى في خدمة مصالح الأهالي.

محب للعلم والمعرفة، ويتضح ذلك من خلال مساندته ودعمه لأكادمية التربية بإنشاء مدارس ابتدائية، ومن أجل ذلك، حصل على وسام عضو ضابط التربية العمومية وجميع أعضاء أسرته يتحدثون باللغة الفرنسية.

قام سي محمد الفـڤون أثناء عملية التجنيد الإجباري عشية الحرب العالمية الأولى بمجهود كبير في جمع أكبر عدد من المتطوعين للدفاع عن فرنسا وألوانها الثلاثة كما انه شُهد له بجمع التبرعات للمحتاجين من الأهالي أثناء الحرب.

خلف ثلاثة أبناء مثقفون هم سي محمد، سي الخوجة، وسي عبد العزيز، خاصة سي الخوجة الذي يملك قدرات علمية في اللغة الفرنسية.

نياشينة ووظائفه

كومندور وسام الشرق،
كومندور نيشان افتخار،
نيشان الأنوار،
مستشار عام،
مندوب مالي،
نائب (أهلي) لبلدية قسنطينة،
Officier d'Etoile Noire du Benin

د. علي تابليت
جامعة الجزائر في 28 ديسمبر 2012

أسرة الفـقّون أو بـن الفـقّون[1]

يقال أن جذور أسرة بن الفـقّون قدمت من الساقية الحمراء واستقرت بالأوراس ثم استقرت فيما بعد بقسنطينة أو قصور التينة (حصن التينة) أميرة بربرية، حسب أسطورة غير تاريخية، وكانت أهم العائلات في قسنطينة بن عبد المؤمن، بن الفـقّون وتطورت العائلة بفقهائها وعلمائها ولعبت دورا مفيدا ومتفوقا.

ورد اسم العائلة في العصور الوسطى من قبل العالم أبو علي الحسن بن الفـقّون الذي منح اللجوء إلى ابن رهينة في 1204 م. المطارد من أمير الموحدين وأعد أبو علي الحسن خطبة بهذه المناسبة ثم أنه تجدر الإشارة إلى الشاعرة عائشة بنت الفقيه عمارة من بجاية وهي تابعة لعائلة الفـقّون.

وتبدأ السلطة الحقيقية لعائلة الفـقّون الحقيقية مع بداية القرن 16 كعائلة مشائخ الإسلام في عهد العلامة سيدي يحي بن الفـقّون.

---

1. نقلا عن :
Marthe et Edmond Gouvion, Kitab Aâyane el-Maghariba, imprimerie orientale Fontane, Alger 1920, pp. 102-103

وكعلاّمة أدرك الأمور مع وصول العثمانيين إلى المنطقة وعليه قدم ولاءه لباشا تونس، غير أنه قتل في جامع الزيتونة مع أزيد من مئة ألف مسلم عند حملة شارل الخامس الاسباني حامي الدولة الحفصية.

ونتيجة لولاء يحي بن الفـڤون كافأ باشا تونس أبو قاسم الفضيل الفـڤون، ابن يحي وعينه قاضي قسنطينة، رغم الأوضاع غير المستقرة في منطقة قسنطينة.

وفي حدود 1565، تنال العائلة لقب أمير الركب أوركاز الرسول (ص) أي رئيس قافلة الحجاج القاصدين إلى مكة المكرمة، وهو المنصب الذي احتفظت به العائلة حتى تحول إلى عائلة عبد المؤمن.

ومن هنا يبدأ المشوار الصعب لعائلة الفـڤون 1568 حيث انطلق سيدي عبد الكريم الفـڤون، صحبة سيدي عبد اللطيف بن مصباح باشا الجزائر ومزوار الشرفة، ظهر الأول ووقعوا في كمين نصبه لهم آل عبد المؤمن، وهكذا يبدأ العداء بين العائلتين بن الفـڤون وعبد المؤمن في عام 1572. حكم بالإعدام على عبد المؤمن ونقلت وظيفة شيخ الإسلام نهائيا إلى عائلة بلفـڤون عاد الأمن والاستقرار إلى قسنطينة، وأقامت الأسرة زاوية باسمها، واشتهرت كمدرسة وفي نفس الوقت كملاذٍ واستقبال للمعوزين ونالت امتياز الأمان والأمن. نالت العائلة حق استيفاء العشر عن السجاد وخشب البناء القادم من الأوراس.

انتقل سيدي عبد الكريم إلى جوار ربه في سنة 1580، وخلفه ابنه محمد في كل القضايا واستقبله الباشا جعفر بصفته إمام الجامع الكبير بقسنطينة وكلفه بإعداد خطبة الجمعة. أدى وضيفته بكل حزم ونجاح حتى وافته المنية في عام 1635 في المويلحة (بمصر) ومعلوم أنه اشتد الطاعون في قسنطينة عام 1634 بعد عودته من الحج كأمير الركب.

تولى أحد أبنائه المدعو سيدي عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الفـڤون، ولعب دورا هاما إثر حصار بن زكرى لقسنطينة.

وفي 1639 تسلم شهادة من الباشا "علي" وأكد له حق رئاسة الركب إلى البقاع المقدسة، كما تأكد ذلك أكثر في عهد محمد باي مثل والده فرحات باي. ولسوء الحظ يزور الطاعون المدينة ويأخذ معه سيدي عبد الكريم في 2 أوت 1663، ودفن في مسكنه.

عُرف سيدي عبد الكريم ككاتب وفقيه. وكان لعمله السياسي دور بارز في إعادة الأمن إلى المدينة.

يأتي بعده ابنه سيدي محمد بن عبد الكريم بن عبد الكريم، ويستلم الإذن بالسلطة من باشا الجزائر اسماعيل بن خليل في 14 –23 سبتمبر 1663 عن طريق الآغا خليل بن عصمان.

وعرفت العائلة استقرارا وازدهارا طوال حكم كليان حسين باي.

وبعد سنوات قليلة فيما بعد حاول سيدي عبد الرحمن الفـڤون أن يحمي صالح باي، الحصار الذي فرضه عليه حسين بوحنك مبعوث داي الجزائر. أثناء الحصار المفاجئ لقسنطينة من قبل بودالي على رأس ستون ألف من الجند.

وفي 1836 وهي سنة حصار مدينة قسنطينة من قبل المارشال Clausel اجتمع مجلس المدنية بقيادة الحاكم بن عيسى في دار شيخ الإسلام سيدي محمد الفـڤون وخرج المجتمعون بنداء إلى الماريشال يقترحون فيه التسليم. غير أن الحاج أحمد باي عاد إلى قسنطينة مصمِّمًا أكثر من ذي قبل على مقاومة الغزاة ومعاقبة المتخاذلين الموقعين على عريضة الاستسلام.

واعتبر سيدي الفـڤون الهجوم الثاني في 1837 أن المقاومة لا فائدة منها نظرا للحصار الشديد والقوة غير المتكافئة، وعليه تقدم بن عزوز بخطاب الأمان طالب فيه بالحفاظ على أرواح مواطني المدينة.

بعد احتلال قسنطينة في 13 أكتوبر 1837، نصب الماريشال valée بن الفـڤون قيادة المدينة إلى ابنه سي حمودة.

وكان سي حمودة في الخامسة والعشرين من عمره، فكون مجلسا شبيها بالمجلس البلدي، بعد ذلك، اعترف الوالي العام للجزائر Vallée بخدمات عائلة الفـڤون وأصبحت هناك علاقات ودّية بين الطرفين وتم تبادل الرسائل بين الطرفين نشرت في :

Bulletin de la société archéologique de Constantine, N° 34.

من قبل Ernest Mercie

وبعد مغادرة Valée لقسنطينة تركه يستخلص الضرائب من الأهالي وفي 11 نوفمبر 1841 أجرى استعراض عسكري بتتويج حمودة قايد لبايلك قسنطينة ووضع بوعكاز بن عاشور من فرجيوة تحت حمايته وأصبحت المنطقة الشرقية كلها في أمان حسب رأي الفرنسيين !

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل حارب سي حمودة تواجد الأمير عبد القادر في الحضنة وذلك عندما تسرّب فرحات بن سعيد إلى الجنوب.

تلقى سيدي محمد بن الفـڤون البالغ من العمر آنذاك 95 سنة وسام La Croix de la légion d'honneur من يد Ferdinande Philippe d'Orléans.

أما سيدي حمودة فقد ذهب إلى فرنسا في 1842 لتقديم تعازيه إلى Guizot ومن خصائل عائلة بن الفقون أنها تنفق أموالها عند الشدائد على المصابين المحتاجين مثل ما حصل سنتي 67–1868 سنوات المجاعة.

الوفد الجزائري من رؤساء العرب
ورحلتهم إلى محروسة باريز
إنشاء محمد بن الشيخ الفكون القسنطيني[1]

الوفد الجزائري من رؤساء العرب ورحلتهم إلى محروسة باريز حين دعتهم الدولة الفخيمة الجمهورية الفرانصوية إلى احتفال جيوشها لدى الأفخم حليفها وصديقها قيصر الروسيا، الدولة الفرانصوية الجمهورية من حسن سياستها وكمال نيتها لم تحرم رؤساء رعاياها المسلمين الجزائريين من التشريف بذلك الاحتفال فدعتهم مثل أبناء وطنها وأحسنت إليهم وأكرمتهم غاية الإحسان والإكرام.

شرعنا في السفر يوم 12 من سبطامبر 1901 واجتمعنا يوم 13 منه في حاضرة الجزائر وكان المكلّف بترتيب سفرنا ذو الأدب الوافر والعقل الباهر صاحب الفطانة والخبرة برؤساء العرب من إقليم الجزائر السيد شامبيج رئيس قسم الأمور العربية في إدارة الولاية العامة وفي ذلك اليوم قابلنا أيضا ذو الأخلاق الحسنة والشيم المستحسنة السيد الكماندة لاكروا ونادوا كلا منا باسمه وبصحبته جواده وأتباعه وعرفونا بأن نسافر يوم

1. طبع في مطبعة بيير فونتانة في الجزائر.

14 منه فتوجهنا فيه وقت الساعة الثانية عشرة بعد أن وزعت علينا تذاكر ركوبنا وركوب أتباعنا إلى مركب بخاري لشركة طران زاطلانطيك، أما خيولنا فرفعت لداخله وقت الساعة الحادية عشرة، وأما نحن فركبنا على الساعة التي بعدها في الطبقة الأولى، وفي الساعة الأولى أقلع بنا المركب قاصدا مرسيلية وذلك المركب عظيم في غاية النظافة والنقاوة، وبه رئيس أديب لبيب، وفي 15 منه وقت الساعة الثالثة ونصف وصلنا إلى مرسيلية فنزلنا منه ووجدنا فبطانا ويوطنة ينتظران نزولنا فركبنا عربات صحبتهما وذهبنا إلى أعظم أوتيل بمرسيلية وخيولنا أخذتها العساكر وذهبت بها إلى اصطبل دولي فأقمنا تلك الليلة واليوم الذي بعدها بمرسيلية، وفي 16 منه برز لنا الإذن لنكون بمحطة المشينة في الساعة الثامنة ليلا وتكلف بأثاثنا وخيولنا يوطنة فحملت العساكر الأثاث في عجلتين وسافرت به وبالخيول في ذلك اليوم في الساعة الثانية عشرة، ونحن كان سفرنا في الساعة المأمور بها بالقطار المسرع لكل أربعة منا بيت يسع ركوب ثمانية أشخاص ركوبا معتادا بحيث يتيسر لكل واحد منا أن ينام مستريحا، وعلى كل بيت من البيوت التي فيها العرب تذكرة تتضمن منع من أراد الركوب بها من المسافرين لئلاّ يقع الضيق عليهم، وقصد أرباب الدولة أن لا يحصل لنا تعب ولا مشقة في سفرنا، وفي 17 منه وقت الساعة التاسعة ونصف صباحا وصل القطار إلى عاصمة باريز فنزلنا وركبنا عربات صحبة السيد القبطان بان فنزلنا بسرك ميليطير، وفي ذلك اليوم برز لنا إذن لنكون مجتمعين في الساعة الحادية عشرة فاجتمعنا بأعظم بيت في الساعة المأمور بها، ثم أقبل علينا المعظم الهمام ذو التبجيل والاحترام، صاحب السياسة البارعة، والفطانة الكاملة السيد الوالي العام ومعه السيد القبطان بان المكلف

بتنظيم سفرنا والسيد برانسيو اليوطنة والسيد جونيو قامبطة فقابلنا ببشاشة ولطافة ورحب بنا غاية الترحاب، ثم انصرفنا عنه ونحن شاكرون فضله، داعون له بالخير والنجاح، ثم برز لنا أمر بسفرنا إلى عاصمة رانس فسافرت خيولنا وسافرنا نحن في 18 منه وقت الساعة الحادية عشرة وصحبتنا السيد القبطان بان فوصلنا في الساعة الخامسة ونزلنا وركبنا عربات إلى مدرسة الفرير فأنزلونا بقصر عظيم، وبيت من أحسن البيوت وعاملونا بألطف معاملة بحيث أنهم يتولون أمورنا بأنفسهم، وفي صباح غد على الساعة السابعة أقبلت إلينا خيولنا مسرجة فركبنا صحبة السيد القبطان بان وسار أمامنا ونحن خلفه قاصدين المحل المسمى بتني الذي هو الميدان الجامع للجيوش الفرانصوية المنصورة فسرنا نحو سبعة كيلوميطر فأشرفنا على أرض متسعة الفضاء طولها نحو عشرة كيلوميطر وعرضها مثل ذلك، وكله جيوش راجلة ورجال من صناديد الفحول على الخيول راكبة، ومدافع شامخة، وأسلحة يكاد لمعانها يخطف الأبصار، وبحيث كنا سابقا في إقليم الجزائر ننظر الجيوش الفرانصوية فنذهل عند رؤيتها، وإذا به في ذلك اليوم نظرنا شيئا من أعجب العجائب، ورأينا رؤساء الجيوش ظاهرة في وجوههم الشجاعة والحكمة والهندسة وهم قائمون على ظهور خيولهم كالبروج المشيدة، وفي الساعة العاشرة حل ركاب السيد رئيس الجمهورية وقيصر القياصرة الروسية في عربة من عربات الملوك يحفهما اثنان من الجنرالات وكوكبة من فرسان القارد بوبليكان مدرعين بدروع يلوح نورها كالذهب الإبريز، وبأيديهم سيوف كأنها برق خاطف تتبعها عربة أخرى مثلها فيها الملكة قرينة القيصر وقرينة السيد رئيس الجمهورية تحفهما كوكبة من فرسان القارد بوبليكان وكنا نحن إذ ذاك

راكبين خيولنا فحين رأيناهما رفعنا أيدينا إجلالا لهما، وتعظيما لهما، وصحنا ينصر الدولة الفرانصوية، ينصر القيصر، ولسان حالنا يقول:

أقيصر قد حللت بأرض قوم إذا وعدوك وفوا بالأوامر

هم القوم الكرام وأنت أهل لرتبة قيصر فوق القياصر

فلا زالت جيوشك في انتظام تحوز بها الفضائل والمفاخر

فسرنا أمامه وسارت كوكبة من فرسان القارد بوبليكان خلفه مسرعين إلى أن قرب إلى الجيش الفرانصوي فدخل إلى الجيش وتخلفنا منتظرين رجوعه إلينا، وأما قرينته وقرينة رئيس الجمهورية فسارت بهما العربة إلى المحل المعد لسيادتهما وهو قبة عظيمة مزينة بأحسن زينة يخفق على أركانها العلم الفرانصوي والعلم الروسي، فجلستا مع أرباب الدولة من وزراء وولاة، وفي الساعة الثانية أكمل القيصر جولانه من وسط الجيش الفرانصوي فخرج منه راكبا جوادا من عتاق الخيل الملوكية يحفه رجال من الجنرالات العظام، فلما وصل إلى القبة المتقدم ذكرها نزل وألحان الموسيقى صادحة باللحن الفرانصوي والروسي إجلالا لعظمته، وبعد ذلك أسرعت الجيوش بمرورها أمام سعادته وسعادة السيد رئيس الجمهورية بأسرع حركة كأنها جبال من حديد، وكذلك الطبجية مرت تسحب مدافع من الطراز الجديد تزعج برؤيتها الناظرين، ويتحير العارفون في تركيبها الهندسي تسحبها خيول كالأفيال على ظهورها أشجع رجال، وبعد ذلك مرت الخيالة المعبر عنها باللسان الفرانصوي كرسي وهم فرسان مدرعون بالحديد كأنهم جبال من حديد متراكمة أو أمواج بحر متلاطمة وبأيديهم سيوف مهندة لهم دوي كدوي الرعد القاصف حتى تخيل للناظرين أن الأرض زلزلت وهم اثنا عشر ألفا

من صناديد الفحول يتبعهم البالون مرتبط بعجلة من حديد فيها آلات هندسية، وحين يسير الجيش يتبعه البالون وتتبعه عجلة فيها الحمام المربّى يحمل البريد، فلما تم عرض الجيوش على سعادة السيد رئيس الجمهورية وسعادة القيصر في الساعة الثالثة ونصف بعد الزوال قدمت إلى سيادتهما عربة ملوكية فامتطياها وكذلك فزينتاهما وسرنا أمامهما إلى أن حل ركابهما بقصر كان أعد لهما بالمحل المسمى بتني فنزلا هما وجميع الوزراء والجنرالات الروسية والفرانصوية وكثيرون من سفراء الدول الأجنبية قد عرضتهم الدولة الفرانصوية ليتشرفوا بتناول الطعام على المائدة المعدة للقيصر فحينئذ شرعوا في وضع الطعام كأنه أزهار أنوار والموسيقى تصدح باللحن الروسي والفرانصوي فحين تم ذلك قدمت إليهما عربة ملوكية فامتطياها وكذلك قرينتاهما وقد أعد لهم من قواطر سكة الحديد قطار قريب جدا مزين بأنوار ورايات الدولتين وكل الناس يصدحون بقولهم ينصر الدولة الفرانصوية ينصر القيصر فحينئذ أمرونا بالنزول فنزلنا عن خيولنا إلى المائدة التي أكل عليها القيصر فمد لنا السماط وأكلنا من كل ما تشتهيه الأنفس، وبعد إتمامنا ركبنا على خيولنا وسرنا قاصدين رانس فحين وصلنا إلى المدينة خرجت إلينا جميع الأمة الساكنة بها فرحبوا بنا ونادوا بقولهم ينصر العرب ينصر فرانصة، أما أنا فقد أخذت بمجامع قلبي الأمة الفرانصوية خصوصا سكان رانس فإنهم فرحوا بنا غاية الفرح ورحبوا بنا غاية الترحاب لأنهم ذوو أدب وسياسة بارعة جزاهم الله عنا خيرا، وفي الغد وقت الساعة الثانية عشرة برز لنا أمر برجوعنا إلى عاصمة باريز فركبنا نحن وخيولنا وأتباعنا في القطار المسرع وسرنا إلى أن وصلنا إلى عاصمة باريز فركبنا عربات ودخلنا محلنا سرك ميليطير فاسترحنا أياما وفي كل ليلة تعرض

علينا المسارح الفرانصوية للتفرج والتنزه بها، وكل ما يلزم ذلك من المصاريف الواجبة في سفرنا وإقامتنا تكلفت بخلاصه الدولة الفخيمة كما هو شأنها وعادتها مع رعيتها تكرما وإحسانا وهذا من كمال رأفتها وحنانتها، ثم برز لنا إذن من قبل المعظم السيد الوالي العام لنكون في الساعة الثامنة صباحا بسرك ميليطير فاجتمعنا بالفعل وأتانا السيد القبطان بان وأمرنا بالركوب في عربات من أحسن عربات باريز مرسلة إلينا من جانب الدولة وكل عربة يجرها اثنان من عتاق الخيل فسار هو أمامنا ونحن خلفه إلى أن وصلنا إلى قصر السيد وزير الحرب المعبر عنه باللسان الفرانصوي منيستردلقير فنزلنا جميعا ودخلنا أعظم قصر وأجل بيت من بيوت التشريفات ووجدنا هناك المعظم المحترم السيد الوالي العام ومعه اثنان من حاشيته فجلسنا هنيئة ثم خرج إلينا المعظم المحترم الأرفع صاحب الشجاعة العظيمة والهيبة الفخيمة السيد الوزير الحربي ومعه ذو القدر الرفيع والرأي البديع السيد الجنرال بيرسان رئيس مكتبه فخاطبه السيد الوالي في شأن العرب المتشرفين بزيارته فأجابنا بلطافة وظرافة ورحب بنا غاية وعرضنا لنكون من أضيافه مساء يوم 26 منه فودعه السيد الوالي وودعناه نحن وانصرفنا داعين له بخير شاكرين فضله وإحسانه، فركب السيد الوالي عربة وركبنا نحن عربات وسرنا خلفه إلى قصر الوزير الأعظم وزير الداخلية فدخلنا بيتا عظيما ثم خرج إلينا الوزير وحاشيته فعرض عليه السيد الوالي زيارتنا له وخاطبه بألطف خطاب في شأن المتشرفين بزيارته فرحب بنا غاية ثم ودعناه وانصرفنا عنه داعين له بخير ونجاح فركب السيد الوالي عربة وركبنا نحن خلفه قاصدين قصر المعظم المحترم ذي المهابة والجلال سمو السيد رئيس الجمهورية فدخلنا قصره العظيم وذهبنا إلى بيت منه ذي تأنيق

وتنوير فجلسنا على كراسي ملوكية وكل ركن من أركان البيت معد لقطر بحيث أن الجزائريين صف والوهرانيين كذلك والقسنطينين كذلك والتونسيين كذلك أربعة صفوف مربعة والسيد الوالي في وسط البيت محفوفا بحاشيته ومعه السيد القبطان بان المصاحب لنا فجلسنا هنيئة وأقبل علينا حاجبان من حجاب رئاسة الجمهورية فوقفا عند الباب الذي يخرج منه سعادة السيد الرئيس وناديا بلسان فصيح بريزدان ريبوبليك فقمنا إجلالا له وتعظيما له فتصافح هو والسيد الوالي وخاطبه بألطف خطاب وألذ كلام في شأن المتشرفين بزيارته من إقليم الجزائر وتونس فأجابه بألطف جواب وأفصح خطاب فرحبا بنا غاية وتشرفت أبصارنا برؤيته وهو شيخ وسوم الخير على وجهه تلوح كنور ساطع فيحق لنا أن نقول في مثله:

رئيس الجمهور كبدر السعود ... علينا تبدى ونحن وفود

فيا له من سيد فاضل ... ومنه الخيور علينا تعود

سألنا الإله بقَا عِزِّه ... وهو السميع المجيب الودود

ذو مهابة ووقار تشرفت أيدينا بمصافحة يده الكريمة وهو مستبشر فرح بنا فودعناه ولسان حالنا يقول:

رئيس فرنسا كريم همام ... سمات الحنان عليه تنور

فمنه الفضائل والمبتغى ... رئيس أرانا عظيم السرور

هذه ألسنتنا تكرر الدعوات الخيرية له ولعائلته ودولته السعيدة ونطلب من ربنا أن يشيد أركانها بالعز والتأييد ويمتعنا بطول عمره ورأيه السديد، ثم ودعنا السيد الوالي داعين له شاكرين فضله وإحسانه

على ما فعل وصنع معنا متعجبين من سياسة السيد رئيس الجمهورية والسيد الوالي العام وإحسانهما لرعيتهما وكيف لا وهما قد شبا على رضاع لبان المعارف وفنون العلوم، وفي 26 منه وقت الساعة السابعة والنصف حل أوان المأدبة التي دعانا إليها سابقا المعظم السيد وزير الحرب تكرما منه علينا، فامتطينا عربات وسرنا إلى قصره فوجدناه يتلألأ نورا وأنوارا وقدم لنا السماط في بيت من البيوت الملوكية فوجدنا أما م كل كرسي ورقة فيها اسم صاحبه باللسان العربي وكل منا مقعده بحسب رتبته فشرعوا في تفريق الطعام على القوم بأحسن تنظيم وأتم ترتيب فأكلنا وشربنا ما تشتهيه الأنفس من كل طعام ملوكي والموسيقى تصدح بالألحان الفرانصوية والجزائرية ولما فرغنا من الطعام قام السيد الوالي واستكثر خيره بألفاظ حسنة ومعان مستحسنة فشرب القوم على سعد حياة السيد الوزير الحربي والسيد رئيس الجمهورية والدولة الفرانصوية فأجابه سعادة السيد الوزير بألطف خطاب وأحسن جواب فعند ذلك استرحنا برهة من الزمان ودخلنا بيتا عظيما مزينا بالأسلحة فشربنا القهوة ثم قام جناب السيد الوالي وصافح السيد الوزير وقرينته وجدد له آيات الفضل والإحسان وكذلك نحن صافحناه هو وقرينته مرددين الدعاء الصالح بالخير والنجاح له ولقرينته المصونة شاكرين فضله وإحسانه على صنعه الجميل وإكرامه الحفيل، ثم برز لنا الأمر بالإذن في الرجوع إلى الجزائر فمن شاء منا رجع ومن أراد التخلف فله ذلك فسافر بعضنا من باريز في القطار المسرع بعد أن ودعنا السيد القبطان بان شاكرين سياسته وإحسانه إلينا .

وحيث أن هذه الدولة الفخيمة الفرانصوية المشهورة بالعدل والإحسان تفضلت علينا بالتشرف بحضور عرض جيوشها على صديقها وحليفها

قيصر الروسيا وتنوير أبصارنا برؤية سعادة السيد رئيس الجمهورية وسعادة القيصر ونظرنا محاسن الدولة وسياسة رجالها وما شملتنا به من التعطفات العالية والمكارم الخيرية فيجب علينا أن نشرح فضلها ونبين محاسنها فإنها هي الدولة الفريدة في عصرها، وألسنتنا لا تفتر طرفة عين عن مدحها وشكر إحسانها على ما أنعمت به علينا، نسأل الله أن يعظم قدرها ويشيد أركانها بالخير والنجاح، ونحن كذلك شاكرون فضل السادات الأفاضل حكام الدولة السعيدة الجزائريين والقسنطينيين حيث أنهم تفضلوا علينا بالوفاق على ذهابنا للتشرف بالاحتفال البديع فنهديهم أطيب سلام وأحسن دعاء خيري وهذه خلاصة ما ذكر.

محمد بن الحسن بن الشيخ الفڤون القسنطيني
تم في يوم 20 أكتوبر سنة 1901م

فهرس
